شرح

برنامج ابن كثير التفسيري العلمي

شرح فضيلة الشيخ

الدكتور: عبد العزيز السحيباني

- حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن مدارسة كتاب الله ﷻ والعيش في واحته والنظر في آياته من أعظم نعم الله ﷻ على عبده، ونحن في هذا البرنامج برنامج ابن كثير النصف الثاني، ونحن في هذه الحلقة الأولى في مقرر التفسير العلمي، سنبدأ على بركة الله في هذا المقرر من خلال مدخل لهذا المقرر، نتعرف فيه على نعمة القرآن، وعلى التفسير، وتعريفه، وبيان مصادره، ومن صنف فيه وأطواره حتى ندلف من ذلك إلى التفسير العلمي.

وقبل أن أشرع في ذلك أعرِّف بنفسي فأقول: أخوكم الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد السحيباني، ونسأل الله ﷻ أن يعيننا على إيصال مسائل هذا العلم وإيضاحها وبيانها، فنسأله تبارك وتعالى أن يبارك في ذلك، وأن ييسر ذلك، وأن ينفع بما نقول من يسمع، وأن يجعل ذلك خالصًا لوجهه الكريم.

أولًا: أقول على بركة الله: قبل نزول القرآن كانت البشرية قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال مبين، كما بين القرآن ذلك، وقد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط في شتى مجالات الحياة، بل انطمست معالم الدين الحق، فانطفأت أنوار النبوات، وانحسر المعروف وساد المنكر وظهر الفساد في البر والبحر، فكان نزول القرآن على النبي ﷺ أعظم منة ونعمة امتن الله بها على أهل هذه الأرض.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

أي منغمسين في الضلال، وقال تعالى أيضًا في الحديث القدسي: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ،**

إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ ﷻ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ»، يخاطب النبي ﷺ، «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ».

فعظَّم الله كتابه وبين أنه محفوظ؛ لأنه قال: «لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ» ولا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الأزمان، وهذه من أعظم نعم الله ﷻ، بل قال: «تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»، فمعناه أنه يكون محفوظ لك في حالة النوم واليقظة، وأيضًا تقرؤه في يسر وسهولة.

لقد كان أيها الأحباب الغاية من نزول القرآن هو أن يكون كتاب هداية ومنهج حياة، ومنقذًا من الضلالة، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾[النحل:٦٤].

ولذلك يلاحظ أن صيغة القصر وما أنزلنا بقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها، أي وما أنزلنا عليه يا محمد ﷺ هذا القرآن إلا لغايات سامية ومقاصد عظيمة هي تبيين الحق للناس فيما كان موضع اختلافهم من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد، فالقرآن لا يترك للباطل مسلكًا إلى النفوس، وهو مفصح عن الهدى إفصاحًا لا يترك للحيرة مجالًا في العقول.

وهذا القرآن هداية تامة ورحمة عامة، الناس محتاجون إليه، بل مضطرون له أشد الاضطرار، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ [النحل:٤٤].

فالقرآن الذي في ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم ظاهر وباطن أنزله الله ﷻ ليبين لهم الرسول ﷺ كل ما يحتاجونه، وهذا يشمل البيان للفظه وبيان معانيه، بل فوق ذلك وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون فيستخرجون من كنوزه وعلومه بقدر ما عندهم من العلم، وبقدر استعدادهم وإقبالهم عليه.

فإذا كانت حاجة الناس إلى هذا الذكر بهذا القدر؛ فإن الله ﷻ أتم النعمة بأن تكفل بحفظه من التبديل والتحريف والتغيير والزيادة والنقصان، ولذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[الحجر:٩].

وهذا الحفظ المذكور في الآية له وجوه عديدة، شاملة لحفظ اللفظ ولحفظ المعنى في جميع الأحوال، ومن أدلة حفظه أيضًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

يقول قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان، لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه، ومعنى قوله: عزيز، أي منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا أكد هذا المعنى بقوله ﷻ: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢]، فلا يقربه شيطان، سواء من شياطين الإنس أو الجن، لا بسرقة وبإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة، ولا بنقصان، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظ في ألفاظه ومعانيه.

ومن الأدلة الدالة على حفظه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾ [القيامة:١٧-١٩]، ثم أيها الأحباب: إن من تمام النعمة التي أنعم الله بها على العباد إضافة إلى حفظ القرآن لهم أن يسره للذكر، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد والانتفاع به، فهو كلام رب العالمين؛ لكن الله يسره لفظًا ومعنى، فهو أحسن الكلام لفظًا وأصدقه معنى وأبينه تفسيرا، وهذه الآية آية القمر يفسرها قوه تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب﴾ [ص:٢٩].

ويفسره أيضًا قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧]، ويفسره أيضًا قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾ [الدخان:٥٨]، والذكر أيها الأخوة شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان هذا القرآن كان علم هذا القرآن حفظا وتفسيرا أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعين عليه.

وهذا اليسر أحبتي المذكور في الآية حاصل في القرآن من وجوه متعددة في مبانيه ومعانيه وحروفه ولغته والتلقين به، فأما المباني، مباني ألفاظ القرآن، أو آيات القرآن فلكونها في أعلى درجات الفصاحة، في ألفاظها وتراكيبها، وكذلك انتظام مجموعها بحيث يخف حفظها وأداؤها على الألسنة.

وأما اليسر في معانيه فحاصل أيضًا بوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه تلك التراكيب من مقاصد سيقت لغرض معين، ويتولد معاني من معاني أخر كلما كرر المتدبر تبدره في فهم هذه الآيات أو تلك التراكيب، ووسائل تحقيق يسر معانيه أيها الأخوة لا يحيط بها الوصف، ومن أهم هذه الوسائل التي يتحقق بها يسر المعاني إيجاز اللفظ من أجل أن يكون أسرع علوقًا بالحفظ أو بالحافظة.

منها إجمال المدلولات، لتذهب النفوس في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الاطناب بالبيان، إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء، هذا في يسر معانيه.

أما يسر حروفه؛ فإن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، تيسيرا لتلاوته، وأما اليسر في لغته فقد جاء تأليف نظم القرآن بلغة وهي اللغة العربية هي أفصح لغات البشر، وأسمحها، أسمحها ألفاظا وتراكيب، بل أغزرها معاني ودلالات، فهذا القرآن أيها الأخوة خيار من خيار من خيار كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

ثم أيضًا من كمال هذا اليسر أن الله جعل المتلقين لهذا القرآن أمة هي أذكى الأمم، الأمة العربية، العرب الذي نزل القرآن فيهم أذكى الأمم عقولًا وأسرعها أفهامًا وأشدها وعيًا لما تسمعه، بل وأطولها تذكرا له دون نسيان، وأفرادها على تفاوتهم في هذه الخلاف إذا اجتمع أصحاب الأفهام منهم على مدارسة القرآن وعلى تدبره، بدت لمجموعهم معاني لا يحصيها الواحد منهم وحده.

هذا حديث عن نعمة القرآن وعن حفظ الله له وعن تيسيره ﷻ كل ذلك لكي تتحقق المهمة التي أنزل الله ﷻ من أجلها القرآن وهي انقاذ هذه البشرية وهدايتهم وانتشالهم مما كانوا فيه من ضلال مبين.

لقد أودع الله ﷻ هذا القرآن، أودع فيه من الخصائص والخصال والسمات ما يدل على أنه كلام رب العالمين، ثم إن الله أودع بهذا القرآن ما يحتاجه الخلق من أحكام، بل جعل فيه كل سعادة، فهو هذا قرار حجة الرسول ﷺ بل هو آيات كبرى شهد برسالته، ونطق القرآن بنبوته، وأظهر الأدلة على صدق رسول ﷺ وعلى أمانته.

وهو هذا القرآن هو مصدر الدين الأعلى، وهو مستند الإسلام في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه، بل هو عماد الأمة في لغتها، وسبب بقائها وسلامتها وتفوقها على سائر اللغات.

ومنه تستمد علومها على تنوعها وكثرتها، فهو أولًا وآخرا إذا أخذت به الأمة واعتنقته وعظمته وحملته حق الحمل هو القوة التي غيرت صورة العالم، وحولت مجرى التاريخ وأيقظت البشرية من سباتها.

فالتوحيد صار ظاهرا، والإيمان صار عليا، وتكسرت الأوثان، والصلبان وانحصر الظلم، وهيمن العدل، وأخرج الله بهذا القرآن الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولذلك كله كان القرآن موضع العناية الكبرى من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ومن سلف الأمة وخلفها جميعا إلى يومنا هذا.

ومن أعظم الصور التي نستطيع أن نقول هي من صور عناية الأمة بهذا القرآن هو النظر في تفسيره، التصدي لذلك والعناية العظيمة به، فبالتفسير نستطيع أن ننتفع بهذا القرآن، ونحقق الغاية التي نزل من أجلها، ولذلك كانت جهود الأمة عظيمة في تفسير كلام الله ﷻ والعناية به.

ولذلك لعلنا نتكلم أيضًا قريباً عن علم التفسير، كيف نشأ وكيف تطور، ونُعرف التفسير بعدما نبينا هذا القرآن والغرض الذي جاء من أجله، أو الغاية العظيمة التي نزل

لأجلها بعد أن بينا أن الله ﷻ قد تكفل بحفظه وتيسيره، فهو أعظم نعمة أن الله ﷻ أنزله ثم تكفل بحفظه وتيسيره لكي يحقق الغاية التي من أجلها نزل.

فأقول: تفسير القرآن قبل أن ندخل في كيف نشأ هذا العلم لعلنا نفسر ونُعرف بتفسير القرآن كعلم أو كمصطلح، فالتفسير لغة أصله مادة فسر، ومدارها على الكشف والبيان والوضوح.

وهذا المعنى يستعمل في المحسوسات ويستعمل في المعقولات، فاليد تفسر، وهذا محسوس، والمعنى أيضًا يفسر، بمعنى يبين، وهذا معقول، لكنه صار في المعقولات الاستعمال أكثر، الاستعمال له في المعقولات أكثر، فالمراد بالتفسير هو كشف المراد من اللفظ، خاصة إذا كان لفظا غريبا أو مشكلا.

أما التفسير في الاصطلاح فالعلماء لهم تفسيرات كثيرة، لا نريد أن نخوض فيها؛ لأن ليس الغرض هو الكلام في التفسير بالتفصيل في ذلك، لكن ممكن أن يقال من باب الإيجاز أن نختار تفسيرًا ربما يكون هو أوجزها وأجمعها وأظهرها وأوضحها، وهو أن التفسير في الاصطلاح هو بيان معاني آيات القرآن الكريم.

فهو تعريف أخصر، وهو أجمع وأمنع، وهو أيضًا موافق للمعنى اللغوي، هو يحصل به المقصود، فكل معلومة يفتقر إليها معنى الكلمة أو الجملة أو الآية تكون من القرآن فهي من التفسير، يعني حتى يتضح المعنى: كل معلومة نحتاج إلى وضوح معنى الآية فهو من التفسير سواء كانت جملة أو آية أو كلمة.

وبهذا البيان يتضح معنى التفسير في الاصطلاح، لكن البيان هذا الذي نحتاجه أو هذه معلومة ربما تكون لبيان آية أو بعضها أو بعدة آيات أو بسياق الآيات أو يكون بسبب النزول، وقد يكون بحديث أو بسنة عامة، وقد يكون أيضًا من خلال اللغة، وقد يكون بغيرها.

فهذه كلها مصادر تعد مصادر التفسير التي يرجع إليها المفسر لبيان آيات القرآن، هذا أمر ظهر لنا الآن أن التفسير هو بيان معاني آيات القرآن الكريم، وهذا البيان له مصادر كثيرة متعددة حسب ما يحتاجه الموضع الذي نريد نفسر تفسيره.

ننتقل إلى كيف نشأ علم التفسير، بعد ما عرفنا التفسير اصطلاحًا لعنا ننتقل إلى كيف نشأ علم التفسير.

التفسير بدأ التصنيف فيه في وقت مبكر في عصر النبوة، بدأ الحديث عن التفسير أو ظهر التفسير والحاجة إليه من عصر النبوة، بل بدأ مع نزول الوحي، منذ أن نزل الوحي بدأ الحديث عن التفسير.

لكن هذا التفسير بدأه النبي ﷺ، والذي علم النبي ﷺ التفسير جبريل عليه السلام الذي لقنه اللفظ، فكما لقنه اللفظ أيضًا علمه المعنى، يقول الله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٤-٥] وهو جبريل عليه السلام.

بل قال الطاهر بن عاشور: اتفق المفسرون على أن المراد به جبريل عليه السلام في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾، وهذا التعليم كما قلت مجمل، يشمل اللفظ والمعنى، بدلالة قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾ [القيامة:١٧-١٩].

فقوله كما يقول الحافظ ابن كثير: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ: أي في صدرك، وقرآنه أي تقرأه، فيجمع بين ما يحفظ في الصدر، ثم أن يتمكن رسول الله ﷺ من قراءته ثم قال ﷻ: فَإِذَا قَرَأْنَاهُ: أي إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ فاتبع قرآنه، فاستمع له حتى تتلقى لفظه كما قرأه جبريل عليه السلام، ثم اقرأه كما أقرأك، يعني اقرأه على صحابتك كما أقرأك عليه جبريل.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾: أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا، فهذا يشمل التعليم من جبريل، وكذلك ما يحصل من الإلهام الذي يلهم الله ﷻ محمد ﷺ في فهمه لكلام الله ﷻ.

فإذًا تكفل الله ﷻ بحفظه في صدر الرسول ﷺ وأن يقرأه كما أنزل، وتكفل أيضًا الله تعالى ببيان معانيه، كما تكفل جل وعلا بحفظ ألفاظ القرآن وحفظ معانيه، وإذا كان الرسول ﷺ قد علمه الله القرآن لفظا ومعنى، فنريد أن نتعرف على الدليل الذي يدل على أنه مأمور من ربه ﷻ بأن يعلمه لأصحابه، وهذا موجود في القرآن.

الدليل الذي يدل على أن رسول الله ﷺ مأمور ببيان القرآن لأصحابه، وهذا سبق مر علينا قبل قليل، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قال السعدي رحمه الله: هذا التبيين شامل لبيان ألفاظه وتبيين معانيه، أيضًا لو نظرنا في القرآن وجدنا في القرآن أربع آيات متشابهة كلها تدل على أن الرسول ﷺ قد علم الصحابة القرآن لفظا ومعنى، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

هذه آية آل عمران، وهناك آية البقرة التي جاءت من خلال قصة إبراهيم عليه السلام، والآية الثانية أيضًا في سورة البقرة عند قوله ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١].

ثم أيضًا آية الجمعة، فلعنا نقف عند آية آل عمران، لبيان دلالاتها على المقصود، وهذا إن شاء الله ما سنذكره إن شاء الله ونستكمله في المحاضرة القادمة.

أشكركم على حسن الإنصات والاستماع، نفعني الله وإياكم بما قلت، وأسأله ﷻ أن يبارك لنا في علمنا وعملنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللّهم صل وسلك وبارك على عبدك ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا، أسأل الله ﷻ بمنه وكرمه في هذا المجلس المبارك أن يوفقنا إلى طاعته وأن يرشدنا إلى العلم النافع والعمل الصالح الذي تُنال به مرضاته.

أيها الأحباب: نواصل الحديث في نشأة التفسير وكيف تطور، وقلنا أنه بدأ التفسير منذ أن بدأ نزول الوحي، وانتهى بنا الحديث إلى أن الرسول ﷺ تلقى القرآن لفظا ومعنى، وأنه أيضًا لما تلقى اللفظ والمعنى كان جبريل عليه السلام يعلمه هذا المعنى، ودلت عليه آيات، وقلنا أن الله ﷻ قد أمر نبيه ﷺ أن يبين للناس هذا القرآن، يبينه ويعلمهم إياه.

وقلنا أيضًا أنها دلت على آيات، وأن أيضًا هناك أربع آيات في القرآن دلت على هذا المعنى الشامل، التعليم الشامل الذي يشمل تعليم اللفظ والمعنى، وأيضًا التربية على هذا القرآن والتخلق به.

وقلنا أن هناك أربع آيات واخترنا آية آل عمران من هذه الأربع وهي آيات متشابهة، لكننا اخترنا هذه الآية لنقف عند جملها ونتعرف على وجه الدلالة من الآية على هذا التعليم الشامل الذي يشمل اللفظ والمعنى والسلوك.

وهي قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

فقوله ﷻ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يعني تعليمهم ألفاظه وكيف يقرؤونه، هذا معنى قوله ﷻ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، فالتلاوة هنا أن يقرأه عليهم، وقد تشمل أيضًا هم قد يقرؤونه عليه، وهذا

ما يسمى بالعرض والسماع، أن يعرض القارئ على شيخه أو يسمع من شيخه ... وفي النهاية هي المراد منه ضبط هذه التلاوة أو القراءة، بحيث تكون كما أُنزل القرآن.

فجبريل عليه السلام علم الرسول ﷺ كيف يقرأ القرآن، والرسول ﷺ علم الصحابة كيف يقرؤون، هنا قال: يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ هذا في معرض تعليمهم لألفاظ القرآن وكيف يقرؤون هذا القرآن، وقوله: ويزكيهم، هذا المراد به الإصلاح، إصلاح القلب والجوارح وتطهيرها حتى تخضع لله عز وجل.

ولا شك أن التلاوة وإن كانت هي تعليما للفظ، فإن فيها أيضًا توجيه وتربية خاص في الجيل الأول جيل الصحابة الذي كان يعلمون، كان القرآن نزل بلغتهم ويعرفون مراميه ومعانيه، وقد يشكل عليهم، لكن في جملة القرآن هم يفهمون القرآن.

فكان النبي ﷺ يتلو عليهم الآيات بحيث يستطيعون أن يضبطوا كيفية القراءة لهذا القرآن، وفي أثناء ذلك هو أيضًا يربيهم بهذا القرآن، ولذلك قال ويزكيهم، بمعنى أنه يزكيهم بهذه التلاوة ويخلصهم مما علق بهم من معاصي أو ذنوب أو انحراف كانوا عليه في الجاهلية.

فلذلك هذه التزكية تشمل طهارة القلب وطهارة الجوارح، يقول علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر التزكية بطاعة الله والإخلاص، وهذا يشمل صلاح القلب وصلاح الجوارح، أما قوله: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، هذا يعني تعليمهم معاني الآيات، فكما علمهم اللفظ في قوله: يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ علمهم المعاني بقوله: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

ويلاحظ أن التلاوة والتزكية هذه عامة لجميع المؤمنين، لا يستغني عنها أحد، بل كل سيفتقر إلى هذا التعريف؛ لأنه هو الحد الأدنى الذي يستطيع به العبد أن يعبد الله عز وجل.

أما الثالث: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، فهو تعليم لبعض المؤمنين، فهو فرض كفاية وهو علماء المؤمنين، أو طلبة العلم فيهم هم الذين يحتاجون هذا التعليم، ولذلك قال: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، قال شيخ الإسلام رحمه الله: التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام

لجميع المؤمنين، فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم، وهذا لا بد منه لكل مؤمن، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليت عليهم.

إلى أن قال رحمه الله: وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية، لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالم بالكتاب لفظه ومعناه، عالم بالحكمة جميعها.

وقوله رحمه الله: وهذا لا بد منه لكل مؤمن لأنه الحد الأدنى للعلم الذي تتحقق به العبودية لله تعالى على بصيرة كما تقدم، والمقصود أن وظيفة الرسول ﷺ هي تعليم أصحابه القرآن بلفظه ومعناه.

ولذلك أن الرسول ﷺ علم الصحابة اللفظ والمعنى يقول شيخ الإسلام أيضًا في مقدمة أصول التفسير: يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، يعني يتناول اللفظ والمعنى.

وأيضًا قال رحمه الله: وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي، وهو من خيار التابعين: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.

قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، فقوله القرآن هو كيفية قراءته، وكونه من حيث التجويد والترتيب ونحجو ذلك، وهذا أيضًت يدل عليه قصة عمر ﷺ مع هشام بن حكيم، هذه القصة حصل فيها خلاف.

كل واحد عمر أنكر على هشام قراءته لسورة الفرقان، وقال هشام أني تلقيتها من النبي ﷺ، وقال عمر: أنا تلقيتها من النبي ﷺ، احتكما إلى النبي ﷺ فأقر كل واحد علا قراءته مما يدل على أن القرآن نزل على أكثر من وجه، وهذا يدل على أنه كان يعلمهم، الشاهد من الحديث أنه كان يعلمهم لأنه علم عمر وعلم هشام، كان يعلمهم كيف يقرؤون القرآن.

وقوله: تعلمنا القرآن يعني كيف نقرأه، والعلم يعني الفهم، والعمل هو التزكية التي وردت قبل قليل، لكن هذا لا يعني أن الرسول ﷺ علمهم كل لفظ في القرآن، فلا يحتاجون إلى ذلك، فإنهم كانوا كما قلنا عرب أقحاح يفهمون القرآن، وهي لغتهم، وهم أهل اللسان العالمين بدقائق اللغة وأساليبها.

فيكون المراد تعليمهم ما يحتاجون إليه من تفسير كلام الله تعالى، سواء كان هذا التعليم سواء ابتداء من النبي ﷺ يبتدئهم بذلك أو يكون إجابة على إشكال أو استفهام منهم رضي الله عنهم.

يقول ابن عبيدة إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فلم يحتاج السلف ولا الذين تركوا وحيه إلى النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه؛ لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، هذا في الجملة.

يقول: على أن التطبيق العملي لأحكام القرآن من خلال السنة العملية هذا وجه آخر في تعليم النبي ﷺ للقرآن، هو بالنظر إلى التطبيق العملي لأحكام القرآن من خلال السنة العملية التي كانوا يشاهدونها في عباداتهم ومعاملاتهم وجهادهم ومغازيهم.

فلا شك أن هذه الأحوال في العبادات وفي المعاملات وفي الجهاد وفي المغازي أحوال كثيرة كانوا فيها مع النبي ﷺ، فالرسول ﷺ كان قدوتهم في ذلك، فكانوا يشاهدون ما يفعله النبي ﷺ سواء في العبادة، في الصلاة، في الزكاة، في الحج وفي غيرها أو في المعاملات، في البيع والشراء، وغيرها من المعاملات أو في جهاد النبي ﷺ أو في المغازي، فكان النبي ﷺ نموذجا حيا يرونه أمام أعينهم فكان يفسر لهم القرآن تفسيرا عمليا حيا يغنيهم عن السؤال عن كثير من آيات القرآن.

ثم أيضًا أن الرسول ﷺ قد رباهم على أن يكون الإيمان، وهذا أمر مهم أن يكون الإيمان هو البعاث لهم على العلم، لم يكن فقط مجرد جمع العلم، بل كان يربيهم على أن يكون الإيمان هو الباعث على العلم للقرآن، وأن تكون غايتهم من هذا العلم هو العمل، فكان هذان الركنان عند الصحابة يكفهم عن السؤال عن ماذا يحتاجون إليه، لا سيما وقد نهاهم

القرآن عن ذلك، وكذلك الرسول ﷺ، قال ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١].

وقال ﷺ: «**ذروني ما تركتم**» إلى أن قال: «**ما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه أو فدعوه**»، والتفسير في عهد النبي ﷺ لم يدون، التدوين كان بعد ذلك، بل كان التدوين مركزا في عهد النبي ﷺ على لفظ القرآن، أي على القرآن نفسه على ألفاظ الوحي، والرسول ﷺ قد نهى عن كتابة أي شيء ما عدا القرآن حتى لا يختلط القرآن بغيره، وهذا كله حرصا على حفظ القرآن في أول فتراته.

ولذلك قال النبي ﷺ «**لا تكتبوا شيئًا سوى القرآن ومن كتب غير القرآن فليمحه**»، ونقل علماء الصحابة إلى التابعين نقلوا ما سمعوه من التفسير النبوي للقرآن مثلا مشافهة، يعني كان التدوين قليلا جدا عندهم، لكن في الجملة كان مشافهة، والتابعيون أو تابو التابعين تلقوا ذلك عن التابعين ومن جاء بعدهم تلقوا تلك الروايات عن الصحابة وأيضًا ما اجتهد التابعون في تفسيره.

وهذه الروايات جاءت ووردت في كتب الحديث وكتب التفسير، وصارت مصدرا أساسيا في تفسير القرآن الكريم، لأنه حقيقة مما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم، فهذان مصدران لا يحتاجان إلى استدلال.

وهناك من علماء من جمع الروايات المنقولة عن الرسول ﷺ في تفسير القرآن من كتب الحديث والتفسير، يعني عنوا بتفسير النبي ﷺ للقرآن، وهذا ذكره السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن ورتبه على ترتيب السور في المصحف، وربما بلغ مجموع ما جمعه أكثر من مائتين وخمسين رواية، أو تزيد تقل عن ذلك وقد تزيد.

ومن أمثلة تلك الروايات أيضًا يعني من هذه الروايات ما رواه أحمد والترمذي وحسنه عن عدي بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: «**إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين النصارى**» فهذا تفسير ابتداء من النبي ﷺ، ومنها أيضًا تفسير ﷺ للسبيل قيل ما

السبيل قال الزاد والراحلة، وهذا أيضًا خبر هناك من ضعف هذا الخبر لكنه المراد أنه مثال على تفسير النبي ﷺ للسبيل.

كذلك أيضا فسر النبي ﷺ قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُون﴾ [الأنعام:٨٢]، هذه شقت على الصحابة وأشكلت عليهم ففسرها النبي ﷺ بآية لقمان وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ [لقمان:١٣].

فهذه أمثلة على ذلك وغيرها أمثلة للتفسير النبوي، هذا تقريبا كان حال التفسير في عهد النبي ﷺ ربما فسره ابتداء ثم فسره لحاجة الصحابة إلى ذلك، لكنه كان تفسيرا في جملته قليل، ربما يكون سبب ذلك أنه لم يكونوا يحتاجوا إلى مزيد تفسير؛ لأنهم كانوا أهل لغة وهم يشاهدون النبي ﷺ يفسر لهم القرآن بفعله ﷺ.

وعاشوا معه وأيضًا كما قال الله قبل قليل أنهم لا يكثرون السؤال لأن كان الغاية التي كانوا ينشدونها في تعلمهم القرآن هي العمل، وكان دائما الذي يحملهم على التعلم هو إيمانهم بالله ﷻ.

ننتقل إلى التفسير، هي مرحلة ثانية تفسير عصر الصحابة بعد موت النبي ﷺ الصحابة أيضًا كان لهم حال مع تفسير القرآن، وكان هناك تطور، لكن الصحابة قد تلقوا من النبي ﷺ وتعلموا منه تعليم القرآن، ولذلك كان الرجل إذا دخل في الإسلام دفعه إلى الصحابة ليعلموه دينه ويتفقه في دينه، ويقرؤوه ويعلموه القرآن.

وأخذ الصحابة بذلك بعد النبي ﷺ، فكان الخلفاء الراشدون يحرصون على تعليم المسلمين القرآن والسنة، ولذلك روى الطبري أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: اللّٰهم إني أشهدك على أمراء الأمصار إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، طبعا ممن اشتهر بالتفسير من الصحابة عدة، ومن أشهرهم الخلفاء الراشدون ابن مسعود ﷺ وابن عباس وأُبي بن كعب، هؤلاء أشهر ومن أكثر الناس تفسيرا، نقلا لتفسير القرآن.

ذلك زيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير، لكن كما قلت أكثرهم هم الثلاثة، وأكثر الخلفاء الراشدين هو علي بن أبي طالب ﷺ، لكن الذي ينظر في التفاسير

الكبيرة التي حرص مؤلفوها على نقل أقوال الصحابة في التفسير مصادر تفسير الصحابة أو مظان تفسير الصحابة هي تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم وتفسير عبد الرزاق.

الذي ينظر في هذه المصادر الكبيرة يجد أسماء كبار الصحابة يفسروا القرآن تتردد في تفسير كل آية تقريبا، خاصة علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، هؤلاء الثلاثة هم من أكثر الناس تفسير، أو من أكثر الصحابة تفسيرا للقرآن الكريم.

هذا تقريبا حال باختصار حال التفسير في عهد الصحابة، ثم بعد ذلك جاء عهد التابعين، فكان التابعون قد تلقوا التفسير من الصحابة، تربوا على أيدهم يتلقوا عنهم السنة، في عهد التابعين اتسعت حركة التفسير وازدادت حاجة الناس إلى هذا التفسير وإلى فهم الآيات.

لأنه صاروا ابتعدوا قليلا عن مصدر النبوة ودخل في الناس أو في العرب ممن ليسوا من أصلهم، بل كانت فيهم العجمة ونحو ذلك، لما اتسعت الفتوحات وانتشر دين الإسلام في أصقاع الأرض، يعني بدأت ملكة اللغة تضعف، وتنوع الثقافات، فنشأت الأمصار الإسلامية جماعة العلماء اشتغلوا بتفسير القرآن لكي يعلموا الناس هذا القرآن لحاجة الناس إلى ذلك.

كان هؤلاء العلماء الذين تصدوا لتفسير القرآن يعتمدون على مصدر الصحابة وعلى ما وصل إليه علمهم في فهم آيات الكتاب الحكيم، يعني يعتمدون مثلا على قول من الصحابة هؤلاء التابعون، وعلى أيضًا ما يتوصلون إليه ويجتهدون في تعلمه من خلال ما عندهم من أدوات ووسائل الاجتهاد.

اشتهر من علماء التابعين في كل مصر من أمصار المسلمين جماعة من المفسرين وبخاصة في أهم الحواضر في ذلك الزمان: مكة والمدينة والكوفة والبصرة، أما أهل الشام فكانوا أقل لأنهم كانوا أهل غزو وجهاد، فكان من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وغيرهم أصحب ابن عباس.

إلى أن قال: وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود وعلماء أهل المدينة في التفسير وتنزيل الناس لها، الذي أخذ عنهم مالك التفسير وأخذ عنهم أيضًا ابن عبد الرحمن.

وتميز من خلال هذا القول ثلاثة مراكز:

يعني كأن يظهر مراكز العلمية في التفسير، ازدهر فيها التفسير في زمن التابعين وكانت هي مكة والمدينة والكوفة، لكن أثر المفسرين الذين مشوا في هذه المراكز لم يتقصر على تلك البلدان الذين نشئوا فيها فإنما امتد إلى الأمصار الأخرى.

طبعًا كما قلنا مكة نشأ فيها ابن عباس وهو مدرسة في ذلك وله تلاميذ في ذلك وكان من أبرز تلاميذه هو مجاهد وهذا مشهور، كذلك في المدينة كان فيها من التابعين زيد بن أسلم، كان فيها أبي بن كعبد وتلقى عنه أيضًا زيد بن أسلم وكان أيضًا من علماء المدينة الإمام مالك الذي تلقى أيضًا عن زيد.

في الكوفة أيضًا كان فيها عبد الله بن مسعود وكان من تلاميذه الذين تلقوا عنه مسروق، كان يقول مسروق: كان عبد الله يقرأ هذه علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار.

كان أيضًا في البصرة في عصر التابعين مفسرون منهم مثل أبي الشعثاء وقد دخل التفسير أيضًا ابن عباس ومنهم قتادة والحسن البصري والربيع وغيرهم.

هذا تقريبًا هذا حال التفسير في عهد التابعين، وتلاحظون إنه تطور وأصبح مدارس تلقى التابعون فيها التفسير عن الصحابة، وهؤلاء التابعون هم الذين نقلوا التفسير إلى من بعدهم.

وفي هذا العهد، في هذه الفترة ظهر أيضًا، نشأ التدوين كما قلنا قبل قليل وظهرت بعد ذلك التفاسير الجامعة.

نريد أن نقف عند تفسير السلف والذي يشكله تفسير الصحابة، تفسير التابعين، وتفسير أتباع التابعين، هم هؤلاء، يعني هذه جملة السلف يمكن أن نفسرها أو يحددها هو جيل الصحابة وجيل التابعين وجيل أتباع التابعين.

فإذا قيل تفسير السلف فهذا هو المراد بذلك وهي فترة يعني ربما تمتد إلى ما بعد يعني أو قريبًا من مائة إلى مائة وخمسين سنة تقريبًا هي الفترة التي يعني تشمل هذه الفترات: فترة الصحابة وفترة التابعين وأتباع التابعين، وجُل الذين نقلوا القُرآن أو تفسير القُرآن هم من هؤلاء الطبقات.

تفسير السلف إذًا هو يعني يمكن أن ينبني على هؤلاء ولذلك صار تفسير السلف حجة، ولذلك نقول: لا يلزم أن كل ما علمه الصحابة لمن بعدهم هو مما تلقوه من النبي ﷺ، هذا لا يلزم، لما نقول إنه حجة لا يلزم أن كل ما تلقوه أو كل ما نقل عن السلف أنه من تفسير النبي ﷺ، بل لا يلزم أن يكون من تفسير الصحابة، لكنهم ساروا على قواعد وساروا على ضوابط ضبطت تفسيرهم حتى صار حجةً في جملته.

ولذلك لما ننظر مثلًا في الصحابة، الصحابة هم عدول، ويقول ابن مسعود عنهم: (كانوا أبر هذه الأُمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا وأحسنها حالًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

فلذا كان اجتهادهم إذا كانوا بهذه الأوصاف العظيمة، كان اجتهادهم في التفسير يتميز عمن بعدهم وهو أقرب إلى الأثر منه إلى الرأي، لاشك في ذلك، فتفسير الصحابة يعدُ أثريًا بالنظر لما كانوا عليه من الصفات والأحوال، ولأنه إما أن يكون له حكم الرفع أو يكون باجتهادٍ على قواعد فهموها من القُرآن والسُنة، فتفسيرهم حجة على هذا النحو، هذا تفسير الصحابة.

وإذا قيل بتفسير السلف فكما قلت: فيدخل فيه تفسير الصحابة والتابعين وأتباعهم.

نقف عند هذا الحد ونستكمل إن شاء الله في المحاضرة القادمة تفسير التابعين وأيضًا: هل هو حجة أم لا؟ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلمُ على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:-

فلا يزال حديثنا متصلًا في مدخل إلى التفسير العلمي بأن نستعرض تطور التفسير وكيف نشأت مدارسه وكيف تحول من حال إلى حال وكيف ظهرت فيه الاتجاهات ونحوها.

انتهى بنا الحديث إلى تفسير السلف وقلنا إنه حجة في جملته حجة ولا يجوز أن نخرج عن هذا التفسير، وذكرنا تفسير الصحابة باعتباره هو الركينة أو الأساس لهذا التفسير، وقلنا إنه حجة وذكرنا أوصاف الصحابة التي تجعل تفسيرهم سواءً كان منقول عن النبي ﷺ أو اجتهادًا منهم أنه حجة في ذاته لأنه أيضًا الصحابة كانوا على أوصاف وعلى أحوالٍ رباهم النبي ﷺ عليها تجعل تفسيرهم أقرب إلى الأثر منه إلى الرأي.

ونقول أيضًا أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابةِ ونقلوه أيضًا إلى من بعدهم. تفسير التابعين هو أيضًا حجة بمجموعه، هو حجة، لاشك أنه حجة إلا إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، كذلك أيضًا تفسير أتباع التابعين.

قولنا إن السلف هي الفترة التي دل عليها حديث النبي ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهمن**»، فهذا قالوا: إن المراد به جيل الصحابة وجيل التابعين وجيل أتباع التابعين، فهؤلاء هم الضابط لذلك.

يعني حتى لو لم نقل بالحد الزماني فإن الحد ببيان أنه ما دام الرجل من أتباع التابعين وهو ينقل التفسير فهو يعتبر من جيل السلف الذين نقلوا التفسير باعتباره الزماني وإلا السلف يدخل فيه كل من اعتنق هذا المذهب في أي عصرٍ كان.

ولذلك يقول بعض المحققين يذكرون أن عصر أتباع التابعين يمتد إلى قريبًا من سنة مائتين وعشرين هجرية، وهذا يصحح المعلومة السابقة التي ذكرناها في المحاضرة الماضية، وقلنا فيها أنه إلى مائة وخمسين، فهذا يعني قد لا ينضبط، عفوًا قد يختلف عن ما

ذكرنا، حقيقة مائتين وعشرين ربما يكون هذا هو أبعد ما يكون في ذلك، لكن الضابط الأسلم أن نقول أنه جيل التابعين وجيل أتباع التابعين وقبلهم جيل الصحابة هو الذي يمثل تفسير السلف فهو حجةٌ بمجموعه كما قلنا ولا يخرج التفسير عنهم.

فإذًا لما كان التفسير على هذا الحال كان العناية بالتفسير تفسير السلف مهم جدًا لأنه الحقيقة هو التفسير الذي يتحاكم إليه في قبول أو رد من فسر القُرآن بعدهم، فهو صار معيارًا لقبول أي تفسير يأتي.

ننتقل إلى مسألة مهمة أيضًا وهي: ظهور طور جديد، وهي ظهور التفسير في مرحلة المصنفات الجامعة، لأنه ظهر بعد ذلك بعد جيل أتباع التابعين ظهرت مرحلة وهي مرحلة المصنفات الجامعة.

هذه المرحلة صار فيها جمع لكل ما قيل في التفسير خاصة مما قاله الصحابة أو التابعون أو أتباع التابعين ومن بعدهم.

إذا نظرنا إلى أقدم تفسير ولكن ليس هو أجمع تفسير، لاشك أن أقدم تفسير ولاسيما مطبوع عندنا هو تفسير مقاتل وهو من أوائل من صنف التفسير وتوفي سنة مائة وخمسين هجرية.

وأيضًا ذكر الداؤودي في كتابه **"طبقات التفسرين"** في ترجمة الإمام مالك وهو توفي عام مائة وسبعين هجرية، أنه هو أول من صنف تفسير القُرآن على طريقة مطى، هذا طبعًا غير موجود بس هو يذكر ذلك، وذكر غيره تفاسير السيوطي ذكر نسب تفاسير إلى عدد من السلف كلهم كانوا في القرن الثاني أو في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث.

لكن الذي يهمنا هو أنا نقف عند تفسير ظهر في القرن الثالث وهو يعتبر من أجمع التفاسير بل هو موسوعة في التفسير لأنه أيضًا يعني نقل أو يعني عُني كثيرًا بتفسير السلف وهو تفسير: ابن جرير الطبري. فهذا أجل التفاسير وأعظمها، وقد حشد فيه كل ما قيل في تفسير القُرآن عن السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، وكان يحرر مسائل ويرجح

ويختار ويضعف فكان إمامًا حقًا في هذا التفسير وكان كتابه يعتبر فتح في هذا المجال فكان هو نقلة في التفسير.

أيضًا تلاه تفسير أبي حاتم وكان دونه لا من حيث أقوال المفسرين أو أقوال السلف أو حتى من حيث المنهج الذي سلكه في التعامل مع أبطال المفسرين.

هناك تفاسير أُخرى بس مفقودة كتفسير ابن ماجة، تفسير ابن مقدوي وغيرها، يعني هذه مفقودة، تفسير الإمام أحمد، كل هذه مفقودة لا نستطيع أن نحكم عليها.

تطور التفسير بعد ذلك باعتبار كما قلنا قبل قليل أن الناس صاروا يحتاجون إلى بيان أكثر للمعاني والغريب ونحو ذلك فصار هناك تعمق في بيان معاني القُرآن وهذا ذكره أيضًا أبو حيان في أنه تتابع الناس في التفسير وألفوا فيه تأليف، وكان التأليف متقدم أكثره إنما هو في شرح اللغة ونقل السبب ونسخ، والقصص لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب ولسان العرب.

فلما فسد اللسان وكثرت العجمة أو العجم ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفة والألسنة، احتاج المتأخرون إظهار ما أنطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التراكيب وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، إلى آخره.

تطورت الحياة أيضًا العلمية في الأُمة الإسلامية تطورًا سريعًا وتنوعات المعارف والثقافات، ظهرت بعد ذلك المذاهب الفقهية، ظهرت الاتجاهات الفكرية والاتجاهات العقدية وانعكس ذلك على تفسير القُرآن فتأثرت التفاسير بكل هذه الأحوال التي مرت بالأُمة.

يقول السيوطي يعني يحكي هذه الحالة: ثم ألف في التفسير خلائق اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال بترًا، فإذا دخل من هنا الدخيل وألتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قولٌ يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانًا أنه له أصلًا غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير

حتى يقول: رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] نحو عشرة أقوال، إلى آخره.

يقول: ثم صنف بعد ذلك قومٌ برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في التفسير على الفن الذي يغلب عليه. يعني كلٍ يعني صاحب النحو يعني يُعنى بالنحو، وصاحب البلاغة يُعنى بالبلاغة، وصاحب اللغة يُعنى باللغة، والإخبار يُعنى بالأخبار، والفقيه يُعنى بالفقه، إلى آخر ذلك.

حتى صاحب البدعة تجده ماذا؟ يؤلف تفسير وينصر بدعته وربما يطوع الآيات من أجل أن تتفق مع مذهبه الفاسد.

هذه المرحلة نقول إنها بدأت فيها مرحلة ظهور الاتجاهات، اتجاهات التفسير وهذه مرحلة مهمة، لكن إذا قلنا هذه الاتجاهات إنما نقولها باعتبار أن الاتجاه السائد سابقًا والمهيمن هو اتجاه السلف، تفسير السلف هو كان الاتجاه الذي كان معتمد والذي لم يخرج عنه، إلا بعد ذلك بعدما تطورت الأمور وحصلت تحولات في الأُمة الثقافية والعلمية وغيرها والفقهية، صار ذلك أيضًا له أثر في التفسير فصار هناك تحولات واتجاهات في التفسير، فلم يعد تفسير السلف هو السائد فقط في ذلك الزمان بل بدأت ظهور الاتجاهات سواء كانت اتجاهات كما قلت اتجاهات عقدية أو غيرها، ومازالت الاتجاهات إلى عصرنا الحاضر.

فأولًا، بدايةً ظهرت مرحلة التفاسير المستقلة، يعني حتى نتتبع هذه الاتجاهات، نقول بدأت مرحلة تفاسير مستقلة وكانت بالأثر وبالسند كتفسير عبد الرزاق كما قلنا، كما تقدم قبل قليل، فهذه مرحلة لكنها يعني تعتبر هي استمرار لمرحلة التفسير أو اتجاه السلف في التفسير.

ثم ظهر بعد ذلك وإن كانت تبع لها لكنها أيضًا بدأت يعني تبذر بذور اتجاهًا آخر في التفسير وهو التفسير الذي يغلب جانب اللغة، وهم كتب المعاني، أصحاب كتب المعاني وإن كانت في وقت مبكر إلى حدٍ ما لكنهم أيضًا أظهروا نوع من التفسير يعتمد أكثر ما

يكون على اللغة، ويعتبرون أنهم هم أهل المعاني فيبينون تفسير القُرآن من خلال اللغة، كمجاز القُرآن لأبي عبيدة، ومعاني القُرآن للفراء، ومعاني القُرآن للأخفش، ومعاني القُرآن العرابي الزجاج وغيرها.

بعد ذلك تلاها تفاسير بدون إسناد، وهذه اختلط فيها هذا وهذا، كتفسير البغوي وابن الجوزي وغيرها، هذه عبارة عن كتب تجمع ما سبق فيكون فيها تفسير السلف وتفسير غيرهم.

في هذه الأثناء أيضًا ظهرت التفاسير على المذهب كما يقول شيخ الإسلام، تفسر بالمذهب العقدي، أي أنه إذا كان صاحب التفسير رأسًا في الاعتزال تجد الاعتزال يظهر في تفسيره، رأسًا في المذهب الأشعري تجدي المذهب الأشعري يظهر في تفسيره، وإلى غير ذلك، فهذا أيضًا كان ظاهرًا، وكانوا ينتصرون لمذاهبهم، فكان هذا يشكل اتجاهًا في التفسير اسمه اتجاه يعني إن صح التعبير اسمه اتجاه بدعي في التفسير لأنه صار يسخر التفسير، وإن كان يذكر تفسير السلف وغيره والتفسير باللغة لكنه أيضًا كان ينتصرُ لمذهبه الذي هو مخالف لمذهب السلف وبالتالي يحصل هذا الانحراف.

أيضًا ظهر اتجاه تفسير فقهي يُعنى بالفقه كما تقدم وهذا ظهر، منها: أحكام القُرآن للجصاص ، أحكام القُرآن لابن فرس، أحكام القُرآن يعني على شتى المذاهب، أحكام القُرآن لابن العربي، أحكام القُرآن لابن الحسن الطبري الشافعي المشهور بكلكي الهراسي.

وظهر أيضًا بعض التفاسير بالبيان الذي يُعنى بالبيان وباللغة وهو اتجاه أيضًا من الاتجاهات.

ظهر أيضًا الاتجاه العقلاني الذي يغلب العقل على النقل في ترجيحاته وفي تفسيره لكلام الله ﷻ، وهذا الحقيقة اتجاه عقلاني هو كانت بذرته في الفرق التي ظهرت، فرقة المعتزلة وفرقة الأشاعرة وغيرهم، كانوا يقدمون العقل على النقل، وبالتالي كان هذا أصل عندهم فظهر ذلك أيضًا في تفاسيرهم، لكن كاتجاه أيضًا ظهر وامتد حتى ظهر أيضًا في عصرنا الحديث.

وهذا الاتجاه يعني غذاه وقواه في العصر الحديث يعني ضعف الأُمة الذي انتهى بسقوط الخلافة وظهور الغرب بتقنياته وبحضارته التي كانت حضارةً براقة وكانت فاتنة وكانت في الحقيقة لها أثر عظيم، مع تسلط العالم الغربي على المسلمين واستعمار ديارهم، وبالتالي ظهرت قوة هذا الغرب، قوته في اختراعاته وقوته أيضًا في حكمه واستعماره للعالم الإسلامي.

ففي هذه الأثناء وفي هذه الظروف يعني تأثر المسلمون بهذه الحضارة الغربية لأنها أيضًا كانت حضارة تقدم العقل وتقدسه وترى أن العقل هو كل شيء لأنه كان سبب الاختراع وسبب التقدم وسبب الاكتشافات التي ظهرت في الوقت ذلك وكان يعني لها خلفية أيضًا فيما ظهر قبل ظهور الحضارة الغربية الصراع الذي كان موجودًا بين الكنيسة وبين من حاولوا يعني الظهور بما يخالف الكنيسة سواءً في اكتشافاتهم أو فيما أبدوه من معارضة لهذه الكنيسة.

فكان صراعًا انتهى بتجنيب الدين وإبعاده عن الحياة وسيطرة الحضارة بكل ما ظهرت به، وبالتالي المذهب العقلاني أو العقل، تقديس العقل كان هذا يعني أصل عند الحضارة الغربية.

ولما استولى الغرب العالم الإسلامي في حقبة الاستعمار كان لهذا أثره في أن المسلمين يتأثروا بهذه المبادئ، لاسيما في حالة ضعفهم، ودائمًا الضعيف يعظم القوي ويتأثر به ويأخذُ بما عنده ولاسيما أن عنده حضارة فاتنة تخلب الألباب وبالتالي اجتمعت هذه الظروف فظهر هذا الاتجاه العقلاني.

ومن رحمه أيضًا ولد، أستطيع أن أقول من رحمه لكنه متأثرًا بها كثيرًا اتجاه التفسير العلمي، التفسير العلمي هذا اتجاه ظهر بظهور الحضارة الغربية التي حضرت في بيئة خاصة وبالتالي لما احتك أو صار هناك اختلاط بالعالم الغربي وبتقنيته وحضارته من قبل المسلمين تأثروا بهذا الأمر وظهر الاتجاه العلمي في هذه الظروف ظروف هيمنة الحضارة الغربية،

وظروف ضعف المسلمين وذهاب الخلافة ووقوعهم تحت سيطرة الغرب أو تحت سيطرة الاستعمار.

هذه الظروف كلها ظهر فيها هذا الأمر فينظر فيها المسلمون للغرب نظرة إعجاب في كثيرٍ من الأحيان، وإن كان أيضًا في بعض الجوانب الأخرى كانوا ينظرون إليهم نظر بأنهم هم يعني يعتبرون قد استعمروهم وأذلوهم ونحو ذلك.

لكن الذي يهمنا هو أن ظهور الاتجاه العلمي هو له علاقة قوية بالاتجاه العقلاني وسنبين ذلك إن شاء الله في فصولٍ أو في محاضرة قادمة، لكن الذي يهمنا ونخلص إليه في الأخير أن تتبع تتطور التفسير بمراحله المختلفة نستطيع أن نتبين فيه كيف ظهر الاتجاه العلمي أو اتجاه التفسير العلمي الذي هو مادة وموضوع مقررنا التفسير العلمي.

هذه الظروف نشأت هذا التفسير، وهذا لا نحكم به على التفسير لكن نقول إن هذه ظروفه وسيتبين إن شاء الله في محاضراتٍ قادمة هذا التفسير من حيث يعني الحكم عليه وكيف نتعامل معه وكيف نستثمره وكيف نضبطه ونحو ذلك من مسائل هذا العلم.

أخيرًا نقول: إن المراد بالتفسير العلمي، نريد أن نعرف هذا المراد، المراد بالتفسير العلمي: هذا أول مصطلح ظهر في القرن الرابع عشر الهجري، مصطلح جديد وليس قديم، وهو كما قلنا يعني تعلق بتفسير القُرآن من خلال النظر إلى الحقائق العلمية أو الاكتشافات الحديثة.

ولكنه لا نقول، نقول هذا كمصطلح لكن أصله قديم ظهر في وقت الدولة العباسية ولكنه في الأول كان عبارة عن محاولات يقصد منها التوفيق بين القُرآن وما جد من علوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة عند الغزالي، أبو حامد الغزالي هو الذي ذكر ذلك بشكل ظاهر.

أيضًا نجد الخرازي في تفسيره كان يحاول أيضًا إبراز هذا النوع من التفسير، لكن بعد ذلك وجد بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج علوم القُرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم لكنها لم تكن مثل العصر الحديث كثرةً ولا مقاربة لها.

راجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجًا كبيرًا ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع أو تتناول موضوع التفسير العلمي، كما أُلفت بعض التفاسير التفسير على ضوء هذه الفكرة.

نُريد أن نقف على تعريف التفسير العلمي، ما المرادُ بالتفسير العلمي؟ وهذا لا يتحقق إلا أن نفكك هذا المصطلح لأنه مركب مكون من جزأين: الجزء الأول كما يقولون مركب وصفي التفسير ثم وصف التفسير بالعلمي.

التفسير عرفناه قبل وهو: المراد به الكشف والبيان، وهو بيان معاني آيات القُرآن الكريم.

ثم نقف عند العلمي هو الذي يهمنا حتى نستطيع أن نعرف هذا العلم. فالمراد بالعلم هنا هو العلم التجريبي، ولنا وقفة إن شاء الله في مسألة تأتي في مسألة العلم كيف أن من آثار الحضارة الغربية ومن هيمنتها حتى في مصطلحات، هيمنت علينا في المصطلحات فأصبح مصطلح العلم الذي كان له معنى في السابق صار له معنى آخر استولت عليه الحضارة الغربية فصار يعني مصطلحًا يدلُ على معنى غير المعنى الذي كان يعرفه السابقون من أهل العلم وهو المصطلح الذي كان، أو المصطلح الذي يدل عليه القُرآن السُنة.

فالمقصود بالعلم هنا في كلمة التفسير العلمي أو في مصطلح التفسير العلمي هو العلم التجريبي وما يتعلق به من علوم الطبيعة الموجودة في الكون مثل الفيزياء والكيمياء وطبقات الأرض، علم الأحياء، علم البحار، علم الفلك، وغيرها من العلوم.

ولذلك يعني سنذكر أنه لا يصلح أن نقول التفسير العلمي فقط بل لابد أن نضيف إليه وصفًا حتى نميزه إذا أردنا أن نحتفظ بمصطلحنا وهو مصطلح العلم عند الإطلاق بمعنى العلم الشرعي كما سيأتي إن شاء الله.

أما العلم فالمرادُ به إدراك الأشياء على حقائقها، يعني تعريف العلم: نقول هو إدراك الأشياء على حقائقها، على ما هي عليه، على حقائقها يعني على ما هي عليه. أو هو صفةٌ

هذا العلم، ينكشفُ بها المطلوب انكشافًا تامًا، يعني صفة ينكشف بها المطلوب انكشافًا تامًا.

لكن لو قلنا: إن العلم هو إدراك الأشياء على حقائقها أو لما هي عليه، لكفى ذلك. لكنه عند الماديين يعرفون العلم بأنه فقط خاص باليقينيات التى تستند على الحس وحده. يعني عند المحدثين يقصرون العلم على ما هو متيقن فقط، وهذا المتيقن عندهم لا يتمُ إلا من خلال الحس فقط، لابد أن يُشاهد، لابد أن يحس به حيث يتحقق ذلك.

لكنه عند غيرهم المرادُ به كما قلنا: العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه.

لكن يمكن أن نقول يعني نعرف هذا العلم أو نُسميه بأن التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم، هذا هو الأولى، ما نقول التفسير العلمي فقط ونسكت، بل نقول: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم. وهذا حتى لا يختلط ولا يلتبس علينا مع المصطلحات الأخرى.

التفسير العلمي كمصطلح عُرف بتعريفات كثيرة الحقيقة هي يعني حولها أو يؤخذ عليها مآخذ ويرد عليها موارد، فبعضهم فسر التفسير العلمي قال: بأنه هو الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في هذا القُرآن، وبعضهم قال: هو الذي يخضعُ الاصطلاحات العلمية في ألفاظ القُرآن، يعني يجعل الاصطلاحات العلمية هي التي تخضع ألفاظ القُرآن وتطوعها لهذا المصطلح أو لهذا التفسير.

وبعضهم قال: هو التفسير الذي يجتهد أو يحاول استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية من القُرآن أو من آيات القُرآن.

وبعضهم يقول: هو التفسير الذي يربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية، ويكشف الصلة بينها. يعني على ضوء ما تنتجه مختبرات ومراكز البحث، إلى آخره.

وبعضهم قال: هو العلم أو التفسير الذي يظهرُ إعجاز القُرآن ويبين صلاحيته لكل زمان ومكان.

نلحظ في هذه التعريفات أنها بعضها يقول: يحكم، بعضها يخضع المصطلحات العلمية لفهم القُرآن، يجعلها هي التي تخضع. فهذه مآخذ على أن كل التعريفات لا تخلوا من يعني مأخذ بأنها تجعل القُرآن أو ألفاظ القُرآن خاضعة أو تحت يعني تأثير هذه المصطلحات.

لكن يمكن أن نقول في الخلاصة: الأقرب أن نقول: أن التفسير العلمي يُعرف بالآتي:أنه هو كشف عن زيادة معنى في آية أو آيات في ضوء حقائق العلوم الكونية والتجريبية. يعني أن المفسر تفسير علميًا يكشف عن زيادة في معنى آية أو آيات في ضوء حقائق العلوم العلمية التجريبية.

الآية مفسرة لكنه يزيدُ فيها معنًا سائغًا كما سيأتي إن شاء الله في ضوابط هذا التفسير. لكن نقول: هو كشفٌ عن زيادة معنى سواءٌ في آية أو آيات يكون هذا الكشف أو هذه الزيادة هي في ضوء الحقائق العلمية أو الكونية التجريبية.

أقف عند هذا الحد وللحديث بقية إن شاء الله في مسائل أُخرى تتعلق بهذا التفسير. نسأل الله أن يعيننا على ذلك. وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:-

فلا يزال حديثنا موصولًا في الحديث عن التفسير العلمي وانتهى بنا الحديث إلى ثلاث مسائل هي ستكون موضوع هذه المحاضرة:

- أما المسألة الأولى: فنريد أن نتعرف على ما وجه الصلة هذه النوع من التفسير، التفسير العلمي، ما وجه صلته بالأنواع الأخرى من التفسير.
- والمسألة الثانية: نريد أن نعرف مفهوم العلم في القُرآن أولًا ثم المفهوم في العصر الحديث وهذا سببه أن التفسير الذي نحن بصدده هو يسمى التفسير العلمي.
- المسألة الثالثة: نريد أن نعرف موقف العلماء من التفسير العلمي.

نبدأ بالمسألة الأولى وهي: صلة هذا التفسير بأنواع التفسير الأخرى.

قد تقدم فيما سبق أن المراد بالتفسير العلمي هو الكشف عن زيادة معنى في آية أو في آيات في ضوء حقائق العلوم الكونية التجريبية، وهذا الكشف عن المعنى الزائد يتحقق من خلال النظر في الآية القرآنية من خلاف اللغة التي نزل بها القُرآن وهي اللغة العربية، وكذلك أيضًا بالنظر إلى الحقيقة العلمية التجريبية في آنٍ واحد وإعمال العقل فيهما ليخرج من هذا المزيج، لذلك المعنى الزائد في الآية الذي كان خافيًا على المفسرين المتقدمين.

وهذا يدل على أن التفسير العلمي يقوم على أربعة أركان:

- على الحقيقة العلمية.
- وعلى الإشارة القرآنية.
- وعلى أمرٍ ثالث وهو اللغة التي نزل بها القُرآن.
- وعلى أمرٍ رابع وهو العقل الذي يجتهد من خلال المفسر لكي يربط بين الحقيقة والإشارة التي جاءت في القُرآن من خلال اللغة العربية.

وعليه: فإذا كان التفسير ينقسم إلى قسمين:

- تفسير بالمأثور

▪ وتفسير بالرأي.

فإن التفسير العلمي يعد من التفسير بالرأي. وقد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، وعليه فصلة التفسير العلمي بأنواع التفسير الأخرى تعود في حقيقتها إلى مصادر التفسير، وذلك أن أهم نوعين من أنواع التفسير يتعلق بهم التفسير العلمي التجريبي هما:

➢ التفسيرُ السلفي.

➢ والتفسير اللغوي.

فالأول: مصدره الرئيس هو القُرآن والسُنة والأثر.

والثاني: التفسير اللغوي مصدره الرئيس هو اللغة.

▪ أما التفسير العلمي فمصدره الرئيس هو الحقيقة العلمية التي يعتقد المفسر أن القُرآن أشار إليها. ومن وجه آخر يمكن أن يقال: أن التفسير العلمي له صلة بهذين النوعين من التفسير باعتبار أن الجانب اللغوي يعد ركنًا في التفسير العلمي كما تقدم. وأما التفسير الأثري فهو الضابط للتفسير العلمي من الشطط والانحراف، هذا ما يتعلق بهذه المسألة وهي مسألة: ما وجه صلة التفسير العلمي بغيره من أنواع التفسير.

❍ ننتقل إلى مسألة أُخرى وهي تفسر لنا لماذا سمي التفسير بالتفسير العلمي؟

فنقف عند كلمة العلمي والعلم.

فالعلم في القُرآن كمصطلح دائمًا يطلق ولا يقيد، مما يدل على أنه معنىً واحد مصطلحٌ عليه ومفهوم ومعروف، لكن قد يعبر عنه أحيانًا في القُرآن بالحكمة وهي أيضًا فيها معنىً زائد على العلم، لكن المراد به في القُرآن عند الإطلاق هو العلم الشرعي، العلم الشرعي هو المراد به عند الإطلاق في القُرآن.

وربما يأتي في بعض المواضع لا يظهر فيها العلم الشرعي فيحمل هذا الذي لم يظهر فيه على ما كان ظاهرًا وهو الغالب في القُرآن، والقرآن هو أصل أسبق في هذا المصطلح، فلما كان هناك أسبق فلابد أن يكون هو الذي إذا أطلق فإن المعنى يذهب إليه.

والآيات الدالة على أن المراد بالعلم هو العلم الشرعي في القُرآن آياتٌ كثيرة على سبيل المثال:

- قال ﷻ في قصة طالوت لما اعترض بنو إسرائيل على اختيار طالوت ملكًا لهم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، المقصود بالعلم العلم الشرعي وما يتبعه من القدرة على السياسة ونحو ذلك.
- الآية الثانية: وهي صريحة في آل عمران قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] إلى أن قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].
- آيةٌ أُخرى أيضًا في آل عمران قال ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فجعل أولوا العلم يشهدون بوحدانيته ﷻ مع الملائكة ومعه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
- وكذلك أيضًا قال ﷻ في آية الإسراء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].
- وقال أيضًا في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة مريم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ [مريم: ٤٣].
- وقال ﷻ في سورة الحج: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].
- وقال في سورة القصص: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] يقولونها لقوم قارون.
- وقال ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].
- وقال في آية الروم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦].

▪ وقال في آية سورة سبأ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

▪ وقال ﷻ في آية سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

▪ وقال ﷻ في سورة غافر: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

▪ وقال ﷻ في سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ويلاحظ أنه في كثير من الأحيان أن يوصف أهل العلم بأنهم أولوا الألباب، أي أصحاب العقول النيرة النقية الصافية الرشيدة.

➢ **هذا هو مفهوم العلم في القُرآن.**

➢أما في العصر الحديث فله قصة، وذلك أنه عندما ظهرت الثورة الصناعية في الغرب على خلفية صراعٍ سابق كما تقدم بين أرباب العلم التجريبي ورجال الكنيسة انتهى بظهور أرباب العلم التجريبي وإبعاد الدين عن الحياة باعتباره معارضًا للنهضة والتطور، فسخروا ما توصلوا إليه من تقنية في الاستيلاء على البلاد واستعباد أهلها ونشر فكرهم وثقافتهم في تلك البلاد.

فأسقطوا الخلافة العثمانية واستعمروا بلاد المسلمين وفي أثناء هذا حصل انبهار من قبل عدد من علماء المسلمين بحضارة الغرب فصار عندهم هزيمة داخلية وازدراء لموروثهم بلسان حالهم وربما بعضهم بلسان مقالهم. فكانت بيئة كثيرٍ من بلاد المسلمين مهيأة لتلقي ثقافة ومصطلحات المستعمر القوي الفاتن.

وقد قصد المستعمر في بلاد المسلمين التي استولى عليها أن يفرض في تلك البلاد التعليم أن يفرض نظامًا يعظمُ فيه أو تعظم فيه العلوم التجريبية وتزدرى فيه علوم الشريعة لأن هذا مقصودٌ لديه لأن الشريعة هي السبب الذي يكون فيه نهضة المسلمين ومقاومتهم المستعمر.

فكان قد فرض نظامًا يترتبُ عليه أن تعظم علومهم، علوم الغرب وأن تزدرى فيه علوم الشريعة والعربية بطريقة توحي إلى الأجيال أن العلم الذي جاء به الغرب هو العلم الذي فيه النهضة وفيه العزة وفيه ما فيه، وأما علوم الشريعة فصور لهم بأن هي سبب التخلف والتراجع والهزيمة إلى غيرها من أوصاف الخذلان.

المنهج التجريبي الذي تقوم عليه حضارة الغرب يقوم على الملاحظة والتجربة فيبدأ من جزئيات أو مبادئ يقينية تمامًا حتى تصل إلى قضايا عامة مستخدمين في كل خطوة التجربة حتى يضمنُ صحة الاستنتاج.

ولما كان العلم التجريبي يمر بمراحل منها: الملاحظة والمشاهدة ثم الفرض ثم التجريب، ثم القانون العلمي الذي ينبني على ذلك، لما كان العلم التجريبي يقوم على هذه الشاكلة، بنو على ذلك أنه علمٌ متيقن لأنه نتج من تجربة ومشاهدة، وأما ما عداه من علوم فإنها لا تعدُ مستيقنة بل مشكوكٌ فيها لأنها لا تقومُ على المشاهدة والتجربة فبالتالي أخضعوا العلوم الأخرى أيضًا لذلك، فما دامت لا تخضع للتجربة فإنها لا تُعدُ علومًا مستيقنة.

فلذلك يلاحظ أن العلم التجريبي أو المنهج التجريبي الغربي يقوم على ثلاث قواعد مهمة عندهم ينكرون كل المغيبات لأنها لا تخضع للملاحظة والتجربة، كذلك أيضًا يزعمون بحتمية القوانين الطبيعية التي قامت من خلال التجربة والتطور العلمي.

وكذلك أيضًا يدعون كفاية المنهج العلمي التجريبي في المعرفة من ناحية والقيام من ناحية أُخرى، يدعون أنه يكفي في ذلك.

فالمقصود هنا: أن العلم التجريبي صار له من الهيمنة في حياة المسلمين حتى غلبَ كمصطلح، ولما كان أكثر من عنوا بالتفسير العلمي هم من تخصصوا في الطب والكيمياء والفيزياء والأحياء والرياضيات وغيرها من العلوم التي تلقوها عن الغرب، أخذوها بمصطلحاتها فاستعملوا هذا المصطلح كما جاء، فشاع المصطلح حتى سيطر وأصبح له يعني الغلبة مع أن الأصل كما قلنا قبل قليل أن السابق هو القُرآن كالمصطلح العلمي إذا أطلق يرادُ به العلم الشرعي، فلابد أيضًا لذلك أن نقيد العلم بالتفسير العلمي بأن نقول:

التفسير العلمي التجريبي حتى نميزه عن العلم الشرعي، بمعنى عن بقية العلوم، بمعنى أن هذا علم يتعلق بعلوم الاكتشافات والحقائق العلمية أو مستند إليها، وليس المراد به العلم الشرعي.

ننتقل إلى المسألة الأخيرة: وهي موقف العلماء من هذا العلم. وهذه مسألة يعني بحث العلماء كثيرًا قديمًا وحديثًا هذا التفسير العلمي فمنهم المؤيد ومنهم الرافض، يعني بدأ الحديث عن التفسير العلمي في وقت مبكر في زمن الدولة العباسية فكان أول ممن اشتهر أنه أول من تكلم عن العلم ونصره هو الغزالي في الإحياء، أبو حامد الغزالي، وكذلك في كتابه جواهر القُرآن وطرح النظرية، طرح هذا الأمر طرحًا نظريًا.

وطبقه الرازي في تفسيره فكان في تفسيره يتناول في مجمل أو في آياتٍ متعددة يتناول فيها الحديث عن التفسير العلمي أو الحقائق علمية معينة لتوضيح الآية. كما تحدث مثلًا عن آية: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] تكلم عن النحل وكيفية يعني خلقة الله ﷻ لها وما يتعلق بها من علوم ضمنها تفسيره. كذلك من المناصرين لهذا التفسير الزركشي في البرهان، كذلك السيوطي في الإتقان وانتصر له.

وعموم المناصرين لهذا التفسير في العصر الحديث هم رموز المدرسة العقلية مثل رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وقبله جمال الدين الأفغاني وعبد الرزاق نوفل، وجوهر الطنطاوي، هم أكثر ممن تكلم عنه وله تفسير في ذلك اسمه الجواهر في تفسير القُرآن الكريم، وانتصر له وتوسع فيه توسعًا كبيرًا.

هؤلاء المناصرين له لهم أدلة من أهمها:

- عمومات القُرآن هي عمومات في القُرآن مثل قوله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله ﷻ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].
- ومن السُنة حديث كتاب الله، حديث هو في الأصح أنه موقوف: «**كتاب الله فيه نَبَأُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ**».

■ وكذلك ما ينقل عن السلف أن القُرآن حمال وجوه.

كل هذه أدلة وعمومات استدلوا بها على أن القُرآن يحتمل كل ما يزاد عليه من خلال التفسير العلمي والاكتشافات العلمية، ويقول أيضًا أن القُرآن له ظاهر وله باطن.

ويقول الغزالي أن العلوم كلها في أفعال الله وصفاته وأن هذه الأسماء والصفات، والقُرآن يشير إلى مجامع العلوم.

الذين عارضوا أبو حيان من المتقدمين وأبو إسحاق الشاطبي أكثر من عارضوه وانتصر لرده ورده بأدلة من خلال حديثه،، كتاب الموافقات التي تتكلم عن المقاصد، وأشار في هذا الكتاب إلى الكتاب، أن من المقاصد هي: أن هذه الشريعة أُمية والرسول أُمي ولذلك جاء هذا القُرآن إلى أُمة أمية وبالتالي أن هذه القُرآن جاء بأساليب العرب وموافق لعلومهم ولا يخرج عنها، فمن أتى بعلوم أخرى خارج علوم العرب فإنه يكون قد خالف يعني معهود القُرآن.

من المعاصرين الذين ردوا هذا التفسير: محمد رشيد رضا، محمود شلتوت، وأمين الخولي. هؤلاء: أمين الخولي ومحمود شلتوت ومحمد رشيد رضا، من الذين عارضوا هذا التفسير العلمي باعتبار ما حصل، ما رأوه من تكلف ومبالغة في هذا الأمر كما حصل من جوهري طنطاوي وغيره.

والذين يعني انتصروا له مثل محمد عبده ورموز المدرسة العقلانية والاتجاه العقلاني في التفسير هؤلاء انتصروا له لأنهم مذهبهم عقلاني، ومعلوم أن التفسير العلمي يقوم أيضًا على العقل وإعمال العقل سواءٌ في الحقيقة الكونية أو في الربط بينها وبين الآية القُرآنية التي قد تشير إلى تلك الحقيقة، فهذا إعمال العقل.

لكنهم لما كانت مدرسة عقلية تبالغ في الأمور العقلانية وترد كل ما هو محسوسٌ لا يقبله العقل مثل: تفسيرهم للطير الأبابيل بأنها جراثيم وغيرها، ونحو ذلك، كل ذلك من باب رد ما هو خارج التجربة وخارج العقل بأمورٍ محسوسة، كل هذا منهج عقلاني.

المقصود أن المذهب العقلاني أو الاتجاه العقلاني في العصر الحديث كان في عمومه من المناصرين للتفسير العلمي لأنه يحقق مقاصد عندهم وهو أنهم أصحاب دعوة للتقريب بين الحضارة الغربية وبين الإسلام.

ولاشك في التفسير العلمي هو باب لهذا الأمر يلجونه لأجل التقريب بين الحضارة الغربية وبين الإسلام وأن القُرآن جاء بأمور يعني توافق هذه الحضارة ومؤيدة لها ونحو ذلك، أو أنه أيضًا سبق في أمور معينة، ففي حالة الهزيمة ربما المهزوم يبحث عن أي شيء ولو كان الطريق فيه متعسف لأجل إثبات أن هذا الذي يملكه يُشيرُ إلى ما عند العدو من تقدم ورقي وتقنيات ونحو ذلك من الأمور.

فالمقصودُ أن هذا التفسير له مناصرون وله مانعون، لكن من أفضل ممن تكلم عنه وبين أهمية يعني ضبط هذا التفسير هو: أبو إسحاق الشاطبي، رده ودلل على ذلك ورد على أدلة هؤلاء الذين قالوا بالعمومات، ويعني بين أن ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] المقصود بها ما يتعلق بالعباد والشرائع التي شرعها الله ﷻ.

وكذلك قوله ﷻ في سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] المقصود بها ما شرعه الله للعباد.

وأما قوله ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] المقصود به اللوح المحفوظ.

وأما بقية العمومات فإنها لا يعني يلزم أن تكون دالة على هذا الأمر لأنها عمومات لابد من دليلٍ خاص يثبت هذا الأمر.

لكن نقول: إن المنهج الوسط هو ما كان أثبت أن الحقيقة علمية وأشارت إليها الآية بضوابط معينة وشروط، سنأتيها إن شاء الله فإنه يؤخذُ به، فهو لا يُردُ مطلقًا ولا يقبلُ مطلقًا، هذا هو المنهج في ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله، واللهُ أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:-

فنواصل حديثنا في هذه الحلقة وهي الحلقة الخامسة من برنامج "ابن كثير" من المستوى الثاني في أكاديمية التفسير والموضوع أو المقرر هو "**التفسير العلمي**".

وانتهى بنا الحديث في الحلقة الرابع عندما تحدثنا عن موقف العلماء من التفسير العلمي. ولدينا الآن ثلاثة مسائل:

- المسألة الأولى: المؤلفات في التأصيل للتفسير العلمي.
- والمسألة الثانية: مجالات التفسير العلمي.
- والمسألة الثالثة: الصلة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وإعجاز القُرآن عمومًا.

❍ **فنبدأ بالمسألة الأولى وهي: المؤلفات في التأصيل للتفسير العلمي.**

وقد كتب كثيرون في التأصيل أو التفسير العلمي عمومًا لكن الذين تكلموا عن تأصيل هذا العلم هم قلة.

❒ ومن أفضل من كتب في هذا الباب هو كتاب للدكتورة: **هند شلبي** اسمه "**التفسير العلمي للقُرآن بين النظرية والتطبيق**" فهو أصله رسالة علمية.

➢ وقد قسمت كتابها هذا إلى قسم نظري تناولت فيه الفصل الأول: التفسير العلمي ذكرت فيه ظهور هذا التفسير ومناهج التأليف فيه والمصطلحات، وذكر مواقف العلماء بأجمال، كما ذكرت بإجمال.

ثم ذكرت مسائل تطرح بين يدي هذا التفسير أو هذا الموضوع أو هذا العلم تتعلق بحقائق الدين أو حقائق العلم، إعجاز القُرآن، اللغة، تغير المفاهيم، الروح التي ينظر بها الباحث في القُرآن.

➢ ثم انتقلت إلى الفصل الثاني وهو فصل حللت فيه بالتفصيل مذاهب العلماء في التفسير العلمي للقرآن وقسمتهم إلى معارضين مطلقًا، وجعلت على رأسهم: أبا إسحاق الشاطبي، ثم أيضًا ذكرت بعض المعاصرين ثم ناقشت هذا المذهب.

ثم انتقلت إلى القسم الثاني وهم الذين عارضوه، سمتهم المعارضين المحترزين، وذكرت من يمثل هؤلاء المعارضين المحترزين وذكرت الأسباب التي دعتهم إلى رفض التفسير العلمي.

ثم بعد ذلك ذكرت أمور كأنها يعني ضوابط ذكرت أنه لا يوجد تضارب بين حقائق العلم وحقائق القُرآن، وأن نظم القُرآن يختلف عن نظم الكتب العلمية، وذكرت أيضًا تعريفات في هذا الباب.

ثم ناقشت هذا المذهب.

ثم انتقلت إلى من أثبتوا التفسير العلمي إثباتًا مطلقًا وذكرت من يمثله وعلى رأسهم، على رأس الممثلين لهذا الاتجاه: أبو حامد الغزالي، وجلال الدين السيوطي. ومن المعاصرين: الطنطاوي الجوهري في كتابه "**الجواهر**".

ثم ناقشت هذا المذهب بالتفصيل، ثم انتقلت إلى الذين يثبتون باعتدال، سمتهم معتدلون أو معتدلين. وذكرت المعاني التي انبثق منها هذا المذهب وهو الذين يثبتون باعتدال، وتكلمت عن علاقته بإعجاز القُرآن، ثم تكلمت عن مفهوم العلم في القُرآن عند المثبتين المعتدلين. وذكرت بعد ذلك ملاحظات في هذا الأمر كأنها ضوابط لهذا الأمر.

ثم ذكرت أيضًا ردت بعد ذلك شبهات المعترضين ذكرتها ثلاث شبه في هذا الباب.

➢ ثم انتقلت للفصل الثالث في تقييم قيمت فيه ما جاء في المذاهب المذكورة. ذكرت مواقف العلمانيين المؤمنين بالقُرآن، ومواقف العلمانيين، أو ذكرت مواقف خاصية القُرآن.

ثم انتقلت إلى القسم التطبيقي وذكرت فيه فصل يعني كمدخل لهذا القسم وهي ذكرت القيم المنهجية التي ينبغي إتباعها لفهم الحقائق الكونية في القُرآن.

ثم انتقل إلى الفصل الثاني وهو يعني عرضت ثلاث مسائل:

- كروية الأرض. ودور الجبال في تثبيت الأرض.
- وبعدها ذكرت مسألة فسيولوجية تقول: وهي تتعلق بالبنان الوارد في سورة القيامة ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤].

هذا ما يتعلق بكتاب هند شلبي.

❑ من المراجع المهمة كتاب اسمه "التفسير العلمي للقرآن في الميزان" لأحمد بن عمر أبو حجر.

يعني أبرز ما جاء في الكتاب هذا، تعرض لنشأة الموضوع موضوع التفسير العلمي، تعرض لنشأته. ثم أبرز أيضًا القائلين به والمعارضين له، وتناول أيضًا وصف واقع التفسير العلمي للقرآن أي التطبيق. وحال المصنفين أو المؤلفين في هذا العلم ما بين غالٍ وجافٍ. وأصله يعني أصل هذا الكتاب أيضًا أصله رسالة علمية الباحث حصل بها على درجة الدكتوراه.

❑ من الكتب المهمة الحقيقة وهي تعتبر أيضًا تأصيلية هي عبارة عن مقالات كتاب اسمه "**الإعجاز العلمي إلى أين؟**" للأستاذ الدكتور: مساعد الطيار، وهو عبارة عن مقالات تقويمية للإعجاز العلمي. تكلم فيه الحقيقة عن تقويم المفاهيم في مصطلح الإعجاز العلمي خاصة مصطلح المعجزة، تكلم فيه كلام جيد. أيضًا له مقالة في هذا الكتاب وهي مقالة طويلة "**تصحيح طريقة معالجة تفسير السلف في بحوث الإعجاز العلمي**" يعني كيف يتعامل من يفسر القُرآن تفسيرًا علميًا كيف يتعامل مع تفسير السلف تعاملًا صحيحًا ولا يقع في الخطأ.

أيضًا ذكر: هل يصح نسبة الإعجاز إلى السُنة؟ هل السُنة فيها إعجاز؟ بمعنى يعني هل يصح أن نثبت الإعجاز أو هي آيات صدق.

أيضًا تكلم عن تعريف الإعجاز العلمي بالسبق هل هو دقيق في مضمونه؟ وتكلم أيضًا عن الإعجاز العلمي عند ابن عاشور، والتفسير بالإعجاز العلمي قائم على الظن، أيضًا هذا تكلم عنه وهو الاحتمال وليس قائم على اليقين.

❒ من الكتب أيضًا أو عبارة عن بحوث، "**التفسير العلمي بين القول والرد**" للدكتور عبد السلام اللوح، وهو بحث صغير.

❒ أيضًا من الكتب "**أبحاث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القُرآن والسُنة**" التابع للهيئة العالمية، أو هيئة الإعجاز العلمي في القُرآن والسُنة التابع لرابطة العالم الإسلامي.

❒ أيضًا من المراجع أو من الكتب التأصيلية كتاب اسمه "**خلاصة وحدة التفسير العلمي في القُرآن الكريم بين المجيزين والمانعين**" لمحمد الأمين ولد الشيخ.

❒ من الكتب الحقيقة المهمة وإن كان لم يكن كتابًا يعني عنون له بهذا الأمر لكنه يعني جزء كبير من الكتاب تناول فيه التفسير العلمي وهو كتاب "**اتجاهات التفسير في العصر الراهن**" للدكتور عبد المجيد المحتسب، تناول فيه الفصل الثالث فيه التفسير العلمي وذكر فيه كلامًا جيدًا وتكلم فيه كلام واسع لكنه تكلم عن المانعين والمؤيدين وفصل في ذلك وبين حجج كل فريق وبين موقفهم في آخر الكتاب.

هذا تقريبًا عن المصنفات في التفسير العلمي.

❍ **عندنا أيضًا المسألة الثانية: وهي مجالات التفسير العلمي.**

المراد بالمجالات هنا: هو نوع المخلوقات التي تناولتها آيات القُرآن وتضمنت إشارات ودلائل تبينت بصورة أكبر في هذا العصر.

القُرآن أوجز هذه المجالات في مجالين:

▪ على أحد الوجوه في تفسير الآية التي تدل عليه وهي قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإن عطاء وابن زيد قالا: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ يعني أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار. ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة.

فهذا تفسير وجه وإن كانت في وجوه أخرى يعني لا تدلُ على هذا المعنى الذي ذكروه، لكن هذا وجه في تفسير الأئمة يدل على أن الآية تحتمل هذا المعنى.

▪ قال تعالى أيضًا من الأدلة على هذا: ﴿وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢٢].

فقوله: ﴿وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ أي عبر للموقنين إذا ساروا فيها من الجبالِ والبحارِ والأشجار والثمار وأنواع النبات.

وقوله ﴿وَفِى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني آيات إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظمًا إلى أن نفخ فيها الروح.

وقال عطاء عن ابن عباس: يُريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع.

وقال ابن الزبير: يريدُ سبيل الغائط والبول، يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرجُ من سبيلين.

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فلتعرفوا قدرته على البعث تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق.

وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال الضحاك: وما توعدون من الجنةِ والنار.

➢ وقد جاء في القُرآن آيات كثيرة تتناول بعضًا من الآيات الكونية كالشمس والقمر والجبال والبحار كقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] يعني القُرآن تناولها بالتفصيل، لكن الآيات السابقة التي ذكرنا في آية الذاريات وكذلك قبلها في آية فصلت هذه الآيات بإجمال تبين مجالات حديث القُرآن عن الآيات الكونية.

لكنه فصل في ذلك، في عموم القُرآن فصل، قوله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨].

➢ كما جاء أيضًا آيات عديدة تفصل في القسم الثاني أو الجانب الثاني وهو خلق الإنسان مراحل نشأته وتطوره، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥] إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

أيضًا جاءت آيات تتناول بعضًا من خلق الإنسان كقوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٥] إلى آخر الآية.

هذه تقريبًا حديث القُرآن عن الآيات الكونية، فقد فصل فيها، لكن يمكن أن نقول أن آية فصلت وآية الذاريات هي التي بينت القسمين بإجمال.

❍ **المسألة الأخيرة التي معنا وهي: ما علاقة التفسير العلمي بالإعجاز العلمي ثم بالإعجاز عمومًا، إعجاز القُرآن عمومًا.**

نقول: إن الإعجاز القُرآني له وجوه بشكل عام فهناك الإعجاز اللغوي والبياني، وهناك الإعجاز التشريعي والإعجاز التأثيري، وهناك الإعجاز العلمي. فهي وجوه الإعجاز متعددة في القُرآن.

فهذه وجوه إعجاز القُرآن فيكون الإعجاز العلمي هو الذي يقترب من التفسير العلمي، فالمراد هنا أن نبين الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

❐ وسبق أن عرفنا التفسير العلمي بأنه: الكشف عن زيادة معنى في آية أو آيات في ضوء الحقائق العلمية والكونية التجريبية.

❐ أما الإعجاز العلمي: فهو يعني تأكيد الكشوف العملية الحديثة الثابتة المستقرة للحقائق الواردة في القُرآن الكريم.

والحقيقة الإعجاز العلمي يعني ليس الآن موضع تحرير هذا المصطلح وإلا في الحقيقة يعني توسع وإلا هو لا يعتبر معجز إنما يعتبر آية من آيات الصدق، فهو آية صدق على صدق النبي ﷺ فيما جاء به من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فهذا تقريبًا، يعني هناك من يُعرف الإعجاز العلمي بأنه: إظهار صدق الرسول ﷺ بما حمله الوحي إليه من علمٍ إلهي ثبت تحققه ويعجزُ البشر عن نسبته إلى محمد ﷺ أو إلى أي مصدرٍ بشري في عصره. هذا تعريف.

وبعضهم يقول: هو إشارة القُرآن الكريم أو السُنة النبوية إلى حقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبتَ عدمُ إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية زمن الرسول ﷺ.

❐ فهذا تعريف الإعجاز العلمي، وهذا تعريف التفسير العلمي. فيدل هذا على أن هناك فرق بينهما، **ويظهر هذا الفرق إذا ركزنا على أمرين:**

▪ أحدهما: أن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية **هو التفسير العلمي**. وأن استخدام التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القُرآن كلامُ الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت **هو الإعجاز العلمي**.

فكأن الإعجاز العلمي يكون أخصُ من التفسير العلمي، وبالتالي لا يكون كل تفسير علمي يعني تضمن إعجازًا، فربما نفسر الآية تفسيرًا علميًا أو يكون في الآية دلالة أو معاني استنبطناها وأخذناها من الحقيقة الكونية أو الحقيقة العلمية فنشأ عندنا زيادة علم في الآية أو زيادة تفسير للآية لكن لا يلزم أن يكون أن هذه يظهر فيها إعجاز أو دليل صدق كما تقدم.

أيضًا يعني المواقف حول التفسير العلمي من حيث القبول أو الرد تتباين، كذلك أيضًا التفريق بينه وبين الإعجاز العلمي يصير فيه أيضًا نوع تباين حتى في أوساط المتخصصين حتى أن بعضهم يرى أن التفسير العلمي هو نفسه الإعجاز العلمي، ويقول ليس بينهم أي فرق، فهو يحكم أن كل آيةٍ تتضمن إشارة علمية في قضية كونية أو طبية أو نحوها فهو يعتبر من التفسير العلمي وهو أيضًا يحملُ إعجازًا علميًا.

وبعضهم يفرقون بين ذلك، ولعل الأقرب هو التوسط بمعنى: ألا نقول بالتفسير العلمي هو مرادف تمامًا للإعجاز العلمي لكن أيضًا لا نقول أنهما منفصلين تمامًا بل بينهما كما قلت قبل قليل: عمومٌ وخصوص. فالتفسير العلمي أوسع والإعجاز العلمي يعتبر أخص باعتبار أنه ليست كل آية نفسرها بآيةٍ كونية يلزم من ذلك أن تكون دليلًا أو ظاهرة في الإعجاز أو أنها دليل على الصدق ظاهر لمن يقرأ تفسير تلك الآية تفسيرًا علميًا.

هذا ما تيسر في هذه الحلقة، وإن شاء الله في الحلقات القادمة سنتناول إن شاء الله بقية مسائل هذا المقرر، وإن شاء الله بحول الله سنتناول خصائص منهج القُرآن في تناوله للإشارات العلمية والحقائق الكونية ثم نتناول الضوابط التي لابد منها عند دراسة الآيات القرآنية أو تفسير القُرآن تفسيرًا علميًا.

واللهُ أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:-

فهذه هي الحلقة السادسة من برنامج " ابن كثير" المستوى الثاني وموضوعنا إن شاء الله هذا اليوم وفي هذه الحلقة سنبدأ بالحديث عن **"ضوابط التفسير العلمي التجريبي"**.

ولكن قبل أن نبدأ أحب أن أستدرك وأنبه إلى مسألة تكلمنا عنها أو آية استدلينا بها في حلقة ماضية في موضوع مجالات التفسير العلمي وهي قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، وذكرت هذه الآية سبق لسان باعتبارها من الآيات التي تدل على العلم الشرعي أو أن القُرآن أطلق، دل على ذلك أن المراد به العلم الشرعي.

وهذه الآية ذكرت العلم لكن سياقها يدل أنه علمٌ غيرُ نافع. فالعلم الشرعي كله علمٌ نافع، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]. قالوا: الهدى هو العلم النافع. والدين هو العمل الصالح.

فالمقصودُ أن قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، أي بما عندهم من العلم الذي يزعمون أنه حق ويعارضون به العلم الذي جاءت به الرسل. فلاشك أن هذا علمٌ ليس نافعًا بل هو ضار، ولذلك كان سبب هلاكهم.

- موضوعنا هذا اليوم هو في **"ضوابط التفسير العلمي"**.

هذه الضوابط هي مهمة جدًا لكي نضبط بها هذا النوع من التفسير وهي قسمان، هذه الضوابط هي قسمان:

قسمٌ أو ضوابط تتعلق بالمفسر المتصدي للتفسير العلمي، هذه تتعلق به، فلابد أن يلتزمها.

نبدأ بأول هذه الضوابط المتعلقة بالمفسر المتصدي للتفسير العلمي، هذا الضابط هو معرفة منزلة السلف وخصائصهم، معرفة خصائصهم ومعرفة منزلة السلف، ومقصودُ هذا هو أن يكون في نفس هذا المفسر المتصدي للتفسير العلمي أن يكون في نفسه تعظيم وإجلال للسلف وتفسيرهم.

وهذا يتحقق من خلال معرفة منزلتهم وخصائصهم فمن ذلك: خيريتهم، فالرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**خيرُ القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وبالتالي هذه يعني يذكر الحديث ثلاثة قرون وهذه القرون تستوعب الصحابة والتابعين وأتباعهم.

وهذه الطبقات الثلاث هي تمثل السلف سواءً في باب التفسير أو باب الفقه أو غيرها من علوم الشريعة. إذًا لابد أن يعرف المفسر فضل هؤلاء.

فأولًا: فضلهم جاء من خلال الحديث النبوي الصحيح فجعل من يكون في هذه القرون الثلاثة هم خيرُ الناس بعده ﷺ. وإذا نظرنا في الصحابةِ مثلًا وهم خيرُ هذه الطبقات هم الذين علموا من بعدهم، نلحظ فيهم صفات عظيمة جدًا وخصائص تميزهم عن غيرهم وتدلُ أيضًا على فضلهم وعلى فضل ما يصدر عنهم من تفسير.

▪ أولى هذه الخصائص: عمق العلم والفهم، فهم أصحابُ علمٍ عميق وفهمٍ دقيق. فهذا أمر مهم جدًا ولذلك عندما ينظرون في كتاب الله ﷻ فإنهم ينظرون إليه نظرة العالم الفاهم الدقيق المحرر.

ومثال على ذلك: ابن عباس رضي اللهُ عنهما وما أُثِرَ عنه من تفسير يعجب منه المرء في دقته وعمقه، وهذا نتيجة دعاء الرسول ﷺ له عندما قال: «**اللّٰهم فقه في الدين وعلمه التأويل**».

▪ أمرٌ آخر وصفة أخرى هؤلاء السلف خاصة الصحابة: سلامة قلوبهم. فقلوبهم توصف بالسلامة من الأحقاد والضغائن والأمراض ونحو ذلك في عمومهم، فلاشك في ذلك. وسلامة هذه القلوب مهمة جدًا أن يتجردوا في تناولهم لكلام الله ﷻ.

▪ وأمر آخر مهم جدًا للصحابة وهو أنهم شاهدوا التنزيل وحضروا الوقائع والغزوات والأحداث التي كان يتنزل القُرآن تعقيبًا عليها، فلاشك أن هذه سمةٌ مهمةٌ جدًا تميز بها السلف لاسيما الصحابة رضوان الله عليهم.

فلاشك أن الذي حضر وشاهد وعاش هذا القُرآن عاشه وعرف الأحوال التي نزل فيها لاشك أنه أقرب إلى الصواب بل أصوب في تفسيره لكلام الله ﷻ وفي نقله للأمةِ بعد ذلك معاني القُرآن ودلالاته التي أخذها وهو عارفٌ بأحوال هذا القُرآن وأسباب نزوله.

▪ سمةٌ ثالثة وهي مهمة جدًا لهؤلاء الصحابة وكذلك تلاميذهم من التابعين وأتباعهم: معرفتهم أحوال العرب وأداتهم. فالقُرآن نزل على رسول الله ﷺ على أُمةٍ عربية لها عادات وطبائع وكانوا في أحوال مختلفة، فبالتالي لابد أن نعرف هذه الأحوال وهذه العادات، وكان يعرفها السلف ولذلك يراعونها عندما يفسرون كلام الله ﷻ ولا يفسرونه بمعزل عن هذه الأحوال والعادات التي كانوا عليها عندما نزل القُرآن وقد راعى مثل هذه الأحوال ومثل هذه العادات في معالجة ما هم فيه من خلافٍ أو مخالفةٍ لأحكامه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

▪ أمرٌ آخر أو صفةٌ أُخرى وهي مهمةٌ جدًا ولابد أن نقف عندها وهي: اللغة، فكانوا هم أهل اللغة حقيقةً خاصة الصحابة فإنهم كانوا أهل اللغة، وكانت لغتهم يعني لغةً تامةً صحيحةً سليمةً، ولذلك يُرجع إليهم في غريب القُرآن فهم أولى من يُرجع إليهم في ذلك. وكذلك تلاميذهم من التابعين وأتباعهم، فلاشك أنك عندما تبحث في كلمةٍ أو لفظٍ من ألفاظ القُرآن فإنك إذا وقفت على كلامٍ للصحابة أو التابعين أو أتباعهم تستمسك به فإنهم هم أهلُ اللسان.

فإذًا قوة اللغة أيضًا كانت سمةً وخصيصة أختصوا بها.

▪ أمرٌ آخر وهو أيضًا مهم، وهي صفةٌ يعني تميز بها ذلك العصر أو تميز بها السلف وهي: خلو عصرهم من التعصب والتفرق والاختلاف فإن ذلك جاء بعدهم، واستفحل بعدهم، لكن عصرهم كان يعني عصرًا تميز بالاجتماع والإتلاف.

فهذا أمرق مهم جدًا فإن ظهور البدع والتعصب وأهل الأهواء أدخل في القُرآن التأويلات والتفسيرات حمل عليها الهوى أو التعصب أو الانتصار للعقيدة ولو كانت مخالفةً لعقيدة أهل السُنة والجماعة.

- أيضًا من الصفات أو الخصائص التي اختصوا بها، قلة الأخطاء فإنك عندما تنظر في تفاسيرهم أو تفسيرهم أو أقوالهم مجموعها تجد قلة في الأخطاء التي وقع فيها أفرادهم فهي قليلة، أما أن يجمعوا على خطأ هذا لا يمكن، لكنهم ربما يقع الخطأ من بعضهم، ويحصل أيضًا نقد وإنكار بعضهم لبعض خاصةً إذا كان خطئًا ظاهرًا.

العلم بهذه الصفات أو هذه الخصائص أمرٌ مهم جدًا للمفسر المتصدي للتفسير العلمي لأن ذلك يزرع في قلبه تعظيمًا للسلف ويعرف بذلك منزلتهم ومكانتهم الحقيقية فيقف عند تفسيرهم وأيضًا يعطيهم حقهم من الإجلال الذي لابد منه لأنهم هم مصدر التفسير ومصدر الدين أو المصدر الذي نفهم به ديننا ونفهم به قُرآننا ونفهم به سُنتنا ولو ضيع هذا المصدر فكيف نستطيع أن نعرف ديننا إلا من خلال هؤلاء السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم لأنهم هم الذين حملوا هذا الدين ونقلوه لنا بفهمٍ صحيح وبأيضًا سلوكٍ صحيح.

ولذلك لما سُئِلَ النبي ﷺ عن الفرقة الناجية قال: «**ما كنت عليه أنا وأصحابي**» أو كما قال ﷺ. المقصود أنه يعني بين أن ما كان عليه هو والصحابة وكذلك أيضًا يُلحق بهم تلاميذهم من التابعين فإن هؤلاء أيضًا هذه الطبقات والقرون المفضلة هم الذين كانوا التزموا دين الله ﷻ والتزموا الفهم الذي تلقوه من النبي ﷺ.

هذا هو الضابط الأول وهو ضابط مهم جدًا بالنسبة للمفسر.

أيضًا الضابط الثاني: معرفة أساليبهم في التفسير، فلابد أن نعرف أساليبهم في التفسير، فلابد أن يعرف المفسر الذي يتصدى للتفسير العلمي التجريبي أن يعرف أساليب السلف في التفسير. كيف كانت أساليبهم فإن معرفة ذلك يعصمه بإذن الله ﷻ من الوقوع في الخلل فإن هذا يقوده إلى حسن التعامل مع أقوال المفسرين، وأقوال مفسري السلف.

فإذًا السلف كانت لهم أساليب من ذلك أنهم كانوا يفسرون باللفظ وكانوا يفسرون بالمعنى، وكانوا يفسرون بالقياس.

أما تفسيرهم باللفظ فمثلًا في قوله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢)﴾ [الضحى: ١، ٢]، الضحى: تفسيره اللفظي أنه هو الزمان الذي يقع بين الفجر والظهر، على خلاف التحديد، لكن هو زمن معين محدد هو الضحى.

فهو تكلم عن الساعة التي تكون بعد شروق الشمس إلى قبيل الزوال أو إلى الزوال، هذه الضحى. لكن إذا أردت أن تفسر تفسيرًا بالمعنى فتقول: أنه هذا قسم من الله ﷻ بالضحى وهو تعظيم وهو دعوى أيضًا إلى تعظيم هذا الوقت الذي عظمه الله ﷻ خاصةً إذا كان يتعلق به عبادات معينة. هذا تفسير باللفظ.

وأما بالمعنى: فهو أيضًا يعني مثلًا في قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] وردت في القُرآن متعددة، فجاء في تفسيرها عن الطبري مثلًا: إنه الخاسر هو الذي أنقص حظ نفسه، فسر الخسران بالنقص، وهذا التفسير هو اللغوي.

لكن هناك من فسره بالهلاك وهذا التفسير هو يأتيكم بالمعنى لكنه ليس هو المقابل لقوله: "خاسر" لأن خاسر هو الناقص.

❑ التفسير بالمعنى له أقسام أو أنواع منها:

➢ التفسير باللازم. والتفسير باللازم يعني هو أحد أنواع دلالات اللفظ، دلالات التضمن، دلالة الالتزام ودلالة المطابقة. فالتفسير باللازم هو يفسر المعنى الآية أو اللفظ تفسيرًا ليس مطابقًا له ولا هو أيضًا متضمن له لكن يفسره تفسيرٌ يكون لازمًا لهذا المعنى، مثل قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف: ١٦] "فبما أغويتني" فبعضهم فسرها: لعنةً، فلاشك أن اللعن هو من لوازم الإغواء. إذا أغواه الله ﷻ يحصل له اللعن ونحو ذلك.

وكذلك الحنيف. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] الحنيف قالوا هو المقبل على طاعة الله ﷻ. لكن فسره بالمائل، أي مائل عن معصية الله ﷻ، فهو أيضًا من لوازمه. وهكذا.

➢ أيضًا من أنواع التفسير بالمعنى: التفسير بجزء المعنى، مثل قوله ﷻ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فسرت بالنبوة، وفسرت بالفقه في الدين، وفسرت بالإصابة في القول والعمل. فلاشك أن تفسيرها بالنبوة أو بالفقه هو جزء من المعنى وليس كل المعاني التي تقع تحت لفظ الحكمة.

وأحيانًا قد تفسر بجزء المعنى من أجل سبب النزول مثل قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فإن هذا فسر بالسكوت، الطاعة بالسكوت، وإلا فالقنوت هو معناه العام هو الطاعة. لكن هذا فسرت بالسكوت أي طاعة الله ﷻ بالسكوت في الصلاة.

أو ربما السياق نفسه يحمل على أن يفسر جزء من المعنى مثل تفسير ابن عباس في قوله ﷻ ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فإن الربوة هي المكان المرتفع دون أن يقيد، ولكن ابن عباس في هذه الآية قيده بأنه الذي لا تجري فيه الأنهار باعتبار الوابل الذي ينزل عليه فيكون سببًا مما يحصل فيه من نبات وازدهار.

➢ من أنواع التفسير أيضًا التفسير بالمثال، هذا التفسير نوع من أنواع التفسير عند السلف وهذا التفسير بالمثال هذا يدخل في التفسير بالمعنى، يعني بمعنى أن المفسر يذكرُ مثلًا من الأمثال التي يمكن تصور معنى اللفظ، مثل قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر: ٨] فإن هذا النعيم يقع على أنواع كثيرة أو على صور كثيرة، فمن يفسره بالماء البارد، أو يفسره بالزوجة، أو يفسره بالقصر، أو يفسره بغير ذلك، كلها مما يعتبر من نعيم الدنيا فهي أمثلة على هذا النعيم وليست تحديدًا أو تخصيصًا لمعنىً معين.

كذلك الطاغوت الذي قال إنه الشيطان أو قال إنه المجرم، فكلها أمثلة للطاغوت تصور هذا المعنى لكنها تقيده بمعنىً واحد، أو بمعاني محددة.

➢ النوع الثالث هذا النوع الثاني ودخل فيه تحته أنواع، النوع الثالث لتفسير السلف: التفسير بالقياس. يعني بمعنى أنه يقيس على الآية معنىً آخر باعتبار يعني يجتمع بين المعنى الظاهر أو المعنى المباشر للآية يجتمع بينه وبين المعنى الآخر إما بعلة أو بنحو ذلك، فبالتالي يقيس عليه فيذكر معنىً آخر لم تنص عليه الآية ولم تدل عليه الآية في ظاهرها وإنما هو قاسه قياسًا.

ويضرب مثل على ذلك مثلًا بتفسير مالك، الإمام مالك فسر قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فسرها بتشميت العاطس، فقاس تشميت العاطس على رد السلام. وهذا بعضهم رد هذا المعنى، بعض المفسرين رده لكنه مثل على التفسير بالقياس.

والتفسير بالقياس له شروط:

- أن يكون المعنى صحيحًا.
- وأن يكون دلت عليه الآية.
- وأن يكون أيضًا أشار إليه اللفظ.
- وأن يكون أيضًا بينه وبين معنى الآية ارتباط.

من الأمثلة: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)﴾ [العاديات: ٢]، الموريات هذه بعضهم فسرها بأنها إيقاد النار. إيقاد العداوة بين الأعداء، إيقاد نار العداوة بينهم. هذا التفسير يعني يعتبر قياسًا وإلا الموريات هي قالوا: ما يحصل من قدح بين الفرس عندما تجري وتعدوا بشدة فإنه يحصل احتكاك بينها وبين أقدامها مع الصخور فيحصل نوع من النار كأنها توري النار عندما تحتك بهذه الصخور. هذا التفسير بالقياس هو أحد المعاني.

❍ ثم أيضًا هناك ضابط ثالث مهم جدًا بالنسبة للمفسر الذي سيفسر تفسير القُرآن تفسيرًا علميًا: **هو أن يكون عالمًا وعارفًا بقواعد التفسير والترجيح**، وهي قواعد مهمة جدًا مبثوثة في كتب المفسرين وعند السلف أيضًا يعملونها وهي مهمة جدًا، ومن أكثر من يعمل هذه القواعد هو الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- في تفسيره.

فالمقصود أن يكون على علم بهذه القواعد فإنها تضبط التفسير وتمنع من الإعجاز من وقوع الخل فيه. من هذه القواعد مثلًا:

- أنه ألفاظ القُرآن تحمل على المعهود من كلام العرب مثلًا أو يحمل تفسير الآية على معهود من كلام العرب.
- أنه يحمل المتشابه على المحكم وليس بالعكس. أن كل آية فيها تشابه تحمل على محكم الآيات.

وقواعد كثيرة جدًا لا يتسع المجال للتفصيل بها، لكن المقصود به هو أن يكون عالم بالقواعد التي تضبط التفسير، يعني مثل قواعد: التفسير بالسياق، السياق مهم جدًا مراعاته في تفسير الآية.

❍ أيضًا من الضوابط التي ينبغي أن ينضبط بها المفسر للتفسير العلمي: **هو الإحاطة بأقوال السلف واعتقاد أنها شاملة القُرآن**. أن يحيط بأقوال السلف لأنه قد يترك أقوالًا تكون هي الراجحة أو تكون هي مضادة للتفسير الذي هو أتى به ويعتبر تفسير إضافيًا. فالإحاطة به أمر مهم جدًا، وإن اعتقد أيضًا أنها شاملة القُرآن، بمعنى أن السلف بمجموعهم لقد فسروا القُرآن فلا يوجد شيء من القُرآن يمكن أن يكون خافيًا إلا وتصدا له وبينوه.

أيضًا مهم جدًا فيه هذا الضابط: أن يُحسن التعامل مع هذه الأقوال فإنه يحيط بها ويكون عالمًا بهذه الأقوال وأيضًا يعتقد أنها لم يفت على هؤلاء السلف شيء من التفسير، وأيضًا يُحسن التعامل معها سواء حال الاتفاق أو حال الاختلاف.

يعني مثلًا: الدحو كما جاء في سورة النازعات ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ [النازعات: ٣٠]، فالدحو هذا يأتي بمعاني متعددة عند السلف لكن لو جاءنا معنى جديد في تفسير الدحوا يمكن لا يختلف أو لا يناقض تفسير السلف فيقبل.

والرتق. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

لعلي إن شاء الله في حلقةٍ قادمة أقف عند هذه الوقفة وأبين لكم كيف يتعاملون مع الاختلاف والاتفاق يعني كيف يتعامل المفسر مع اتفاق السلف واختلافهم من خلال مثل هذه الأمثلة.

أكتفي بهذا القدر ونلتقي إن شاء الله في الحلقة القادمة، واستودعكم الله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:-

فلا زال حديثنا موصول في ضوابط التفسير، وكنا قد بدأنا في الحلقة الماضية بالحديث عن "**ضوابط التفسير المتعلقة بالمفسر**" ذكرنا ثلاث ضوابط، وقلنا الضابط الرابع هو: الإحاطة بأقوال السلف. بمعنى أن يكون عالم بها حتى لا يفوته شيء من الأقوال التي ربما تكون متعارضة مع ما يذهب إليه أو حتى قد تكون أيضًا معينة له في بيان التفسير الذي توصل إليه من خلال أو في ضوء الحقيقة العلمية التي يرى أنها تشيرُ أو القُرآن يشيرُ إليها.

فالإحاطة بأقوال السلف شيء مهم، كما أن يعتقد أنهم السلف يعني قد فسروا القُرآن، ولا يوجد شيء من القُرآن يمكن أن يكون فاتهم في ذلك، وبالتالي إذا جاء تفسير جديد ويكون التفسير هذا مخالف لتفسير السلف فلا نجهل السلف بسبب هذه المخالفة، بل نقول السلف قد أحاطوا بتفسير القُرآن بمجموعهم، فلابد أن يكون التفسير يعني موائم وموافق لما قالوه، وهذا أمرٌ مهم جدًا.

أيضًا قلت الإحاطة، الإحاطة بأقوال السلف من المهم أن يُحسن التعامل معها، سواءً كانت متفقة أو مختلفة. وأضرب مثال على ذلك: الرتق. قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فالرتق هنا جاء عن السلف تفسيرات له.

فالقول الأول: إنه السماوات والأرض كانتا قطعة واحدة وهو الرتق، والفتق هو أن فصل السماء عن الأرض. فإذًا هنا فسروها باعتبار أن السماوات والأرض لها وصف واحد وهو الرتق، ثم بعد ذلك فتقها فيعود على السماوات والأرض معًا.

والقول الثاني: جعل الرتق والفتق يعود إلى السماء على حدة، وعلى الأرض على حدة، بمعنى أنه قال: إن السماوات أن السماء كانت رتقًا بمعنى كانت قطعة واحدة ثم فتقت إلى سماوات، والأرض كذلك كانت قطعة واحدة ثم فتقت أي فصلت إلى أراضين. هذا القول الثاني.

والقول الثالث يقول بأن المراد بالفتق أو الرتق بأن السماء كانت لا تمطر ففتقت بالمطر، وكانت الأرض لا تنبت ففتقت بالنبات، فجعل الرتق والفتق يتعلق بالنسبة للسماء بالمطر وبالنسبة للأرض بالإنبات.

القول الرابع قالوا: إن المراد به إنها كانت ظلمة وكان الفتقُ هو دخول الضوء أو النهار، فجعل الرتق هو الظلمة والفتق هو النهار.

هذا ما ورد عن السلف في تفسيرهم. ولو تأملنا في هذه الأقوال لوجدنا أن القول الأول والثاني يعني لا يُعلم إلا من خلال الوحي، لأن الله الذي قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فتكون الرؤيا هنا المراد بها الرؤية القلبية، يعني العلم أي يعلموا، وكذلك أيضًا الظلمة وأنه الفتق هو بالنهار أو بالضوء، هذه أيضًا غير معلومة إنما فقط علمت من خلال القُرآن.

القول الرابع وهو القول بالفتق بالنبات وهي بالنسبة للأرض والفتق بالماء أو بالمطر أو بالغيم بالنسبة إلى السماء هذا أمرٌ مشاهد، وبالتالي تكون الرؤية (ألم ير) تكون الرؤية بصرية، ويكون هذا القول هو أقربها وأرجحها باعتبار أنه هو المشاهد وهو ينطبق لأنه يحاج الكفار بأن هذا أمرٌ يرونه. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فلعل أسعد الأقوال بالرجحان هو هذا القول.

هناك قول خامس ذكره أصحاب أو أرباب التفسير العلمي التجريبي وقالوا إن هذا يتعلق بنظرية اسمها نظرية الانفجار العظيم، وهي أن الكون تكون إنه حصل انفجار عظيم ترتب عليه وجود السماوات والأرض، الانفجار يعني كانت قطعة واحدة نشأ عنها هذه الأجرام العظيمة.

وهذا يعني ما هو بعيد عن القول الأول الذي يقول أن السماء والأرض كانتا رتقًا، كانتا قطعة واحدة، فبالتالي هو يتفق مع هذا القول، فبالتالي لا يرد، لكن اختلاف هذه الأقوال السابقة هذه التعامل معها أنها أقوال وردت عن السلف ومحتملة لكن نقول: إن

أرجحها وأقواها باعتبار أن الرؤية بصرية وأنه هو الذي يتفق مع احتجاج القُرآن على الكفار يحاجهم على أمرٍ مشاهد.

وأيضًا هو أمرٌ دلت عليه آيات في القُرآن كثيرة، وأيضًا يدل عليه السياق لأن الله ﷻ قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] هذا أشار إلى أن الماء يعني يحيى به كل شيء ومنها إحياء الأرض بالنبات والماء يكونُ من خلال السماء ينزل من السماء.

هذا ضابط مهم جدًا ويتعلق به أيضًا أن يحسن التعامل مع القول يعد خطًا. قد يرد عن السلف قول يعتبر خطأ. فكيف يتعامل المفسر مع ذلك؟ أنه يفهمه على وجهه. أول شيء: يفهمه فعلًا صحيح على وجهه ثم يتحقق من صحة نسبته إلى المفسر من السلف، ثم يتحقق أنه لم يرجع عنه، قد يكون رجع عنه. ثم يتحقق أنه أراد به تلك الآية، قد يكون هذا المفسر لم يرد به الآية فسره بآية أخرى يعني ورد فيها هذا اللفظ ولكنه في الآية الأخرى المعنى أو السياق يدل على معنى آخر مختلف.

أيضًا ينتبه للمصطلحات فلا يحمل القُرآن على مصطلحاتٍ حادثة لأن القُرآن ورد فيه مصطلحات متعددة إنما المصطلحات كانت عند العرب ويستعملونها فهي التي يحتجُ بها. فهذا أمرٌ مهم جدًا في هذا السياق.

من الضوابط المهمة في ذلك: اعتقاد حجية تفسير السلف والعصمة لمجموعه، فإن مجموع تفسير السلف يعتبر تفسيرًا معصومًا لا يمكن أن يجتمعون فيه على خطأ، وبالتالي هذا أمر يجب أن يكون في ذهن المفسر الذي يريد أن يضيف تفسيرًا إلى كلام الله ﷻ ويجتهد في ذلك فإن عليه أن يعتقد أن تفسير السلف حجة وأيضًا أنهم معصومون في مجموعهم لا بأفرادهم؛ فإن الأفراد، فإن العصمة لا تكون إلا لنبي الله ﷺ أو لأنبيائه، وأما هؤلاء المفسرون فبمجموعهم باعتبار أنهم يمثلون العلم الذي الله ﷻ أراد الأُمةَ أن تلتزمه، والشريعة تلتزمها بفهم السلف؛ فلابد أن يكون أيضًا تلحقه العصمة بمجموعهم.

ولذلك فالحق لا يخرج عن مجموع تفسيرهم، وإذا وجد تفسير مناقض لهم فلاشك أن هذا التفسير مردود، ولذلك إذا جاء المفسر تفسيرًا علميًا بقولٍ دلت عليه الآية فيما يظهر له

من خلال اللغة ونحو ذلك وقال إن الاكتشافات العلمية أو الحقيقة العلمية تؤيده فإنه إذا كان مناقض لتفسير السلف فإنه لا يؤخذ به بل يُرد لأن هذا ضابط ومهم جدًا أن يعتقد المفسر حتى لا يخرج ولا ينحرف في تفسيره، أن يعتقد حجية تفسير السلف ثم يعتقد العصمة لمجموعهم أو لمجموع تفسيرهم، وأيضًا يعتقد أن الحق لا يخرج عن مجموع تفسير السلف.

هذا تقريبًا ما يتعلق بالضوابط فيما يظهر واللهُ أعلم المتعلقة بالمفسر.

عندنا ضوابط أُخرى تتلق بالآية المفسرة أو الآيات وربما بعضها يكون يتعلق بالمفسر لكنها في جملتها تتعلق بالآية المفسرة وهي بمثابة شروط مهمة جدًا أن تُلتزم:

أولى هذه الضوابط: أن يكون القول مفسر به صحيحًا في ذاته. بمعنى: أن المفسر تفسيرًا علميًا تجريبيًا عندما يأتي لآية من الآيات يقف عندها ويفسرها تفسيرًا دلت عليه حقيقة علمية هو يرى أنها تدلُ عليها فيفسرها تفسيرًا.

فنقول أولًا: يجب أن يكون التفسير في ذاته صحيح، لا يكون تفسيرًا غير صحيح. فكيف نعرف أن هذا التفسير صحيح؟ <u>**نعرفه من خلال أمرين**</u>:

- الأمر الأول: أن تدل عليه اللغة. وكما قلنا قبل بضوابطها وأن تكون اللغة أيضًا نستخدم باللغة مصطلحات العرب الذين نزل عليهم القرآن زمن الاحتجاج وكذلك أساليبه ونحو ذلك وألفاظه، ولا نأتي بمعاني جديدة وليدة لم تكن مستعملةً عند نزول القرآن.

فإذًا تدل عليه اللغة، إذا دلت عليه اللغة مهم جدًا، فإن دلت عليه فهذا أيضًا دليل على صحة الأمر، لكن قلت يجب أن تكون اللغة موافقة بأساليبها وألفاظها لأساليب العرب.

يعني مثل قوله ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝٣٣﴾ [الرحمن: ٣٢، ٣٣]، فقال: **"يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفيذوا من أقطار السماوات والأرض"** الأقطار جمع قطر وهي الناحية أو الجانب.

يأتي واحد يفسرها بالقطر الهندسي المشهور المعروف، طبعًا هذا مصطلح جديد فلا يصلح هذا التفسير هذا، فيكون هذا تفسيرًا خاطئًا. فنقول: إذًا التفسير هذا من بدايته غير صحيح لأنه استعمل لغةً غير لغة القرآن الكريم التي نزل بها.

➢ أيضًا من الأدلة على صحته: ألا يخالف مقطوعًا به في الشريعة. يعني مثلًا الشريعة فيها قواطع كثيرة فلا يأتي بتفسير للآية التي يكون في ذاته غير صحيح. ونقول غير صحيح لأنه خالف مقطوعًا به الشريعة، مثل الذي يفسر أقوال في قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] يقول الأطوار مثلًا هي الأطوار التي ذكرها دارون في نشأة الإنسان وكيف نشأ الإنسان. لاشك أن هذا مخالف ومناقض لشريعة الله ﷻ وللقرآن.

فنقول إذًا هذه علامتان يعرف بها التفسير الصحيح من غيره في ذاته، ولا نقول الذي دلت عليه الآية بل في ذاته فقط قبل أن نعرف هل الآية تدل عليه أم لا؟

فإذًا: ▪ أن تدل عليه اللغة. ▪ وكذلك ألا يخالف مقطوعًا به في الشريعة.

➢ من الضوابط المهمة في هذا أن تحتمل الآية المفسرة هذا القول الحادث، هذا أيضًا ضابط آخر. إذا كان الضابط السابق هو أن يكون المعنى في حد ذاته صحيحًا فإن هنا نقول: أن تكون الآية المفسرة تحتمله، أي تدل عليه. قد تكون الآية فيها معاني أو تفسيرات متعددة، فالمهم هنا أن نقول أن هذا القول الحادث أو التفسير الحادث الذي دلت عليه الحقيقة العلمية أن تكون الآية قد دلت عليه.

وهذه الدلالة قد تكون بجزء المعنى وقد تكون بالمثال وقد تكون بغير ذلك من الأساليب التي ذكرناها قبل قليل التي كان السلف يستعملونها في تفسيرهم لآيات القرآن. يعني مثلًا نضرب مثال على ذلك: في قوله ﷻ: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، فورد عن السلف في تفسيرهم واقع، في تفسير هذه الآية: أن النجوم هنا قالوا: هي نجوم نزول القرآن، يعني أن القرآن قد نزل منجمًا يعني في أوقات مختلفة متباعدة أو متعددة فلم ينزل جملةً واحدة بل نزل مفرقًا، فهذه هي النجوم أي تفريق القرآن عندما نزل وتعددت مواقع نزوله، هذا قول.

القول الآخر: قالوا لا، إن المراد "بمواقع النجوم" هي النجوم التي نراها في السماء، واختلفوا في تفسير هذه المواقع، بعضهم قال: المواقع هي مواقعها عند غروبها وعند شروقها عند ظهورها، وبعضهم قال: لا، المواقع هي البروج، بروج هذه السماء كالجدي والميزان ونحو ذلك.

وكما قال ﷻ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، وبعضهم فسرها بأنها: حال النجوم عندما تتساقط عند قرب القيامة، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] فالانكدار هنا المراد به تساقط نجومها.

هذه المعاني التي ذكرت عند السلف.

جاء في هذا العصر من يقول لنا أيضًا يفسر تفسير إضافي يقول: إن المراد بمواقع النجوم بأنها نظرية اكتشفت جديدة وأن الذي نراه في السماء هو فقط أثر مرور هذه النجوم من زمن طويل وليست هي النجوم لأننا فقط نرى مواقعها فقط عندما مر هذا النجم في زمنٍ مضى، وليست هي النجوم التي نراها. ولاشك أن هذا التفسير يخالف هذا التفسير الذي ورد عند السلف، على اختلاف الأقوال في ذلك.

لأننا لو نظرنا في القرآن نفسه لوجدنا من يتحدث عن النجوم، النجوم هي التي تُرى، كما قال ﷻ في قصة إبراهيم عليه السلام عندما قال: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام: ٧٦] فهو يرى ذلك بعينيه فأثبته ذلك.

وقد أقسم الله ﷻ بهذه النجوم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١]، ونحو ذلك، فهي أيضًا نجوم مشاهدة وبالتالي لا نقول أبدًا إنها مجرد هي آثارها وهي ليست موجودة أصلًا، إنما نقول: التفسير هذا يناقض تفسير السلف ولا يُقبل لذلك.

➢ من الضوابط المهمة في هذا الأمر: ألا يعود التفسير الحادث بالإبطال لقول السلف بالكلية. وهذا مهم جدًا جدًا. ألا يعود التفسير الحادث أو الجديد بالإبطالِ لقول السلف بالكلية، يعني يأتي ممن يتصدون للتفسير العلمي التجريبي يأتي لآية ويقول إن هذه الآية تدلُ على معنى جديد دلت عليه الحقيقة العلمية الفلانية وبالتالي يأتي هنا بتفسير.

ثم ننظر إلى تفسير السلف لهذه الآية ونجد أن هناك تناقضًا بين ما قاله السلف وبين هذا التفسير الحادث الجديد.

أما إذا كان يبطل أحد الأقوال هذا مسألة أُخرى، لكن أن يبطل جميع الأقوال أو يكون على جهة مناقضة لما ذهب إليه السلف في تفسير الآية؛ فإن هذا يعتبرُ غير مقبول. ولذلك من الضوابط ومن الشروط: ألا يعود التفسير الجديد أو الحادث الذي فسره من يتصدى للتفسير العلمي التجريبي ألا يعود بالإبطال لقول السلف بالكلية، يعني جميع ما قاله السلف في تفسير الآية.

ويمكن أن نضرب مثال على هذا وهي مسألة قد يكون فيها خلاف لكنها قد تصلح مثال هذا في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

فبعض المفسرين الذين يعني يعنون بالتفسير العلمي التجريبي يقولون هذه الآية تتعلق بحركة الجبال والأمر اكتشف حديثًا وأنها تتحرك حركة هائلة جدًا بالنظر إلى حركة الأرض، وذكروا حول ذلك كلام طويل في هذا الأمر.

لكن تفسير السلف الذي رجحه الطبري رحمه الله يرى أن المراد بها هو في الآخرة، ولاشك أن السياق يدلُ على ذلك، السياق يدل على أن هذا يحصل في الآخرة، فالذي يتأمل في الآيات التي جاءت قبل هذه الآية فيتبين له أن الحديث هذا عما يحصل يوم القيامة ولذلك قال ﷻ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، ثم قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٨٩، ٩٠]، هذا طبعًا الحساب يكون في الآخرة، فهو يذكر لنا مشهد من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة، وكيف يكون حالهم في الآخرة.

وكذلك أيضًا ما قبلها أيضًا كان يتحدث عن أحد أهوال يوم القيامة. المقصود: أن هذه أيضا تحركها يكون يوم القيامة. ألا يكون هناك قول يناقض قول السلف في ذلك.

➢ من الضوابط المهمة: ألا يقصر المفسر معنى الآية على التفسير الحادث. ومعنى هذا الضابط يعني يأتي المفسر إلى الآية التي يُريد أن يتصدى لها ويُريد أن يبين أن فيها معنىً جديدًا ثم يقول: إن هذه الآية تدلُ على كذا بدلالة الحقيقة العلمية التي اكتشفت وهي حقيقة ثابتة وصحيحة إلى آخره ولا تدل إلا على هذا المعنى، ثم يرد كل ما جاء عن السلف في تفسير الآية، فهو لا يقول هذا معنى جديد مناسب يتفق مع ما قاله السلف أو على الأقل يسكت بل يردُ ذلك.

❍وعمومًا أحوال المفسرين تفسيرًا علميًا تجريبيًا مع أقوال السلف هم على أحوال:

- بعضهم يهمل أصلًا ما جاء عن السلف من تفسير، يهمله إهمالًا تامًا، يعني يتحدث عن الآية وما دل عليها من الحقيقة العلمية، ثم يذكر هذا القول الجديد ولا يذكر تفسير السلف إطلاقًا ولا يلتفت إليه. هذه طائفة من هؤلاء.

- وطائفة يعني يذكر التفسير الذي توصل إليه ثم يقابله بذلك بما هو أقبح، بل يرد هذا التفسير الذي ورد عن السلف، يرده ويضعفه ويرى أن هذا القول هو الصحيح، وهذا أقبح من الأول.

- بعضهم يعني يرجع إلى تفسير السلف ويذكر الأقوال ويحشدها حشدًا لكنه لا يذكرها على سبيل يعني بيان علاقتها بالقول الجديد أو توجيل هذه الأقوال وبيان كيف يكون حكم هذا القول الجديد ونحو ذلك، لا، بل هو يحشدها حشدًا فقط جمعًا لكنه في الآخر هو يرى أن هذا هو المعنى الذي دلت عليه الآية دون بقية الأقوال.

فهذه حال تقريبًا أو عموم أحوال من يتصدون للتفسير العلمي التجريبي، وبالتالي لابد أيضًا نقول ونؤكد على أنه: من أهم الضوابط ألا يقصر معنى الآية على التفسير الحادث، فإن كان تفسيرًا صحيحًا ملتزم بالضوابط السابقة؛ فإنه يضاف إلى التفاسير، بشرط أنه لا يكون أيضًا مناقض لتفسير السلف.

أما أن يُقصر المعنى عليه ويُجعل تفسير السلف مردود أو يُهمل؛ فإن هذا لا يصح.

هذا ما تيسر في مسألة الضوابط، وبالتالي لابد أن ننظر إليها بشقيها وبقسيمها المتعلقة بالمفسر أو المتعلقة بالآية نفسها المفسرة، فلابد أن يُنظر إليها هذه النظرة حتى نستطيع بإذن الله ﷻ أن نكتب أو نؤلف أو نوجد تفسيرًا علميًا تجريبيًا منضبطًا متسقًا مع تفسير السلف.

هذا ما تيسر في هذه الحلقة ولنا إن شاء الله لقاء في حلقاتٍ قادمة إن شاء الله نتحدث عن مسائل أُخرى من مسائل التفسير العلمي التجريبي. أستودعكم الله والسلامُ عليكم ورحمة اللهِ وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرا، أما بعد فهذه الحلقة الثامنة من حلقات برنامج ابن كثير المستوى الثاني في مقرر التفسير العلمي.

ونبدأ هذه المحاضرة بالتعريف بموضوع هذه المحاضرة، وهو خصائص منهج القرآن في عرض الآيات الكونية والنفسية، موضوع المحاضرة هو خلاف محاضرة بعد إن شاء الله، سيكون هو عن خصائص منهج القرآن في عرض الآيات الكونية والنفسية وهو موضوع مهم.

إذًا هو عن خصائص منهج القرآن في عرض الآيات الكونية والنفسية، فقد سلك القرآن منهجًا بديعًا في عرضه للآيات الآفاقية والنفسية، وظهر هذا المسلك البديع من خلال خصائص تميز بها المنهج القرآني عند تناوله لتلك الآيات.

وهي خصائص تكشف عن روعة هذا المنهج وجماله وجلاله، وتحقيقه لمقاصده في هذا الشأن، فقد تنوعت هذه الخصائص فشملت جوانب عديدة:

منها: ما يتعلق بالمؤمن ومن ينبغي أن يكون عليه حيال هذه الآيات.

ومنها: الكيفيات التي عرض بها القرآن هذه الآيات.

ومنها: الأسلوب والعبارة التي تناولها بها.

ومنها: تحقيق القرآن لمقاصده الكبرى في هذا الصدد.

وغيرها من الخصائص التي سيتم تناولها على نحوٍ مفصل، مقرونةً بأدلتها من القرآن، مع بيان وجه الدلالة، ويصعب الإحاطة بهذه الخصائص ولكن يمكن القول بأن من أهمها عشر خصائص، سيتم بإذن الله تناولها على النحو التالي.

الخاصية الأولى: وهي ستستغرق هذه المحاضرة وهي خاصيةٌ مهمة، هذه الخاصية هي: أن القرآن دأب على تعظيم الآيات الآفاقية والنفسية، والإشادة والامتنان بها تحقيقًا لمقاصدها وتنبيهًا لشأنها.

تحقيقًا لمقاصدها أي الآيات الآفاقية والنفسية، وتنبيهًا لشأنها أي: شأنها العظيم، وهذه الخاصية ظهرت من وجوه:

الوجه الأول: كثرة الآيات القرآنية التي تناولت الآيات الآفاقية والنفسية في القرآن،

فلا تكاد سورةٌ من القرآن تخلو من ذكر الآيات الآفاقية والنفسية، والقصود بالآيات الآفاقية أو الآيات النفسية، وهي قد مرت بنا في محاضراتٍ ماضية.

الآفاقية: هي التي تتعلق بالآفاق بالكون، سواءً كانت تتعلق بالسماء وما فيها، أو بالأرض وما فيها.

النفسية: تتعلق بنفس الإنسان، خلقه ومراحله وكل ما يتعلق به.

فإذًا لا تكاد سورة من سور القرآن لا تكاد أن تخلو من ذكر آياتٍ آفاقية ونفسية، لاسيما السور المكية وهذا ملاحظ، وكذلك السور المدنية على المفصل فإن ذكر الآيات الآفاقية أو النفسية في سوره المدنية قليل، ذكر الآيات الآفاقية والنفسية في السور المدنية في الجزء المفصل اعتبروه قليلا.

الوجه الثاني: من الوجوه التي ظهرت فيها هذه الخاصية، هو تكرار ذكر هذه الآيات الآفاقية.

الوجه الأول هو كثرتها، الوجه الثاني هو تكرار القرآن لذكر هذه الآيات الآفاقية والنفسية في سوره، بأساليب مختلفةٍ ومتنوعة، فكم تكرر في القرآن ذكر خلق الله للسماوات والأرض، تسخيرهما وما فيهما لتحقيق الغاية من خلق الإنسان.

وكم تكرر أيضًا ذكر الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والرياح، والسحاب والمطر وكل آيةٍ عظيمة، وذكر ما يتعلق بهذه الآيات من وظائف الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، والسحاب، والمطر تكررت كثيرًا وتكرر ذكر وظائفها.

وأيضًا: كم تقرر ذكر خلق الإنسان، والأطوار التي مر بها هذا الخلق، وكذلك تكرر خلق أعضائه وما يتعلق من وظائف، ذكر السمع، والبصر وغيرها من أعضاء الإنسان وما يتعلق بها من وظائف وكلت بها.

ونحو ذلك من سور التكرار، على أن القرآن في كل موضع تُذكر فيه الآيات الآفاقية أو النفسية، يعرضه على هيئة جديدة أي أنه تكرار ليس تكرارًا مملًا وليس تكرارًا غير مفيد، بل هو مفيد ونافع وعظيم ويدل على الإعجاز.

إذًا: يعرضه على هيئةٍ جديدة تناسب موضوع السورة، وتناسب أيضًا هذه الهيئة أغراض السورة، مما يجعل هذا التكرار غايةً في الروعة والإعجاز.

أيضًا من الوجه التي ظهرت في هذه الخاصية: أن هذه الآيات الكونية أو الآيات الآفاقية والنفسية، قد تصدرت كثيرًا من سور القرآن ومعظم آياته المفصلة، معظم آيات المفصل أيضًا ظهرت فيها هذه الآيات الكونية والنفسية.

فمنها على سبيل المثال: سورة الأنعام، ويونس، والرعد، والنحل، والحج وغيرها.

وأما المفصل: فمعظم سوره افتتحت أو صدرت بالآيات الآفاقية، معظم سور المفصل افتتحت أو صدرت بالآيات الآفاقية.

وأيضًا من الوجه التي ظهرت فيها هذه الخاصية: هو إقسامه ﷻ بجملةٍ من الآيات الآفاقية والنفسية، وما أقسم به ﷻ فهو معظم وآيةٌ جليلةٌ تناسب المقسم عليه، كل ما أقسم به ﷻ في كتابه فهو معظم، وهو أيةٌ جليلةٌ تناسب المقسم عليه الذي يكون أيضًا ذا شأن.

كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

فنلاحظ أن الله ﷻ قد أقسم بهذه الآيات تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

أي: قد أفلح من طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب، وخاب من دس أو دنس نفسه بالرذائل واقتراف الذنوب، ولا ريب أن المقسم عليه أمرٌ شأنه عظيم فهو يتكلم أو

يتناول مصير هذا الإنسان، إما الى السعادة الأبدية، وإما إلى الشقاء الأبدي ولاشك أن هذا أمرٌ عظيم.

وكذلك ما أقسم به الآيات هي آياتٌ عظيمة تقوم عليها حياة الإنسان، الشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض وما طحاها وكذلك هذه النفس التي خلقها الله ﷻ وسواها على أحسن صورة، كل هذه أمور عظيمة جليلة.

ومعنى قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ [الشمس: ١].

أي: نورها مراج بالشمس وضحاها هو نورها ونفعها الصادر منها.

وكذلك قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢].

أي: تبعها ف المنازل والنور.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: ٣].

أي: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها نيرًا واضحا.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤].

أي: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلما.

وكذلك قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥].

يُحتمل أن ما موصولة ويكون الإقسام بالسماء وبانيها الذي هو الله تبارك وتعالى، ويُحتمل أنها مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وبنياها الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان.

فإذًا: ... إما يكون قسم بالله ﷻ تبارك وتعالى، فيقسم ﷻ ببانيها وهو نفسه ﷻ، أو قسمٌ ببنيانها وهو غايةٌ في الإحكام والإتقان والإحسان ونحو ذلك.

كقول الله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٦].

أي: مدها ووسعها فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع وجوه الانتفاع.

وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧].

يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، أي جميع ما خلقه الله ﷻ من

المخلوقات الحيوانية، وهذا يؤيده العموم هذا العموم يؤيد ذلك، ويحتمل أن المراد بالإقسام هو نفس الإنسان المكلف.

بدليل ولكن بعده حين قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨].

هذا قوله ﷻ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ١: ٨].

هذا مثال آخر على هذا لوجه وهو أن الله ﷻ أقسم بالذاريات، وهي الرياح تذرُ المطر، وتذرُ التراب، وتذرُ النبات إذا تهشم أي النبات عندما ييبس ويتهشم تذروه هذه الرياح.

ثم أ قسم بها فوق ا لرياح وهي السحاب الحاملات وقرا، أي: حاملات ... من الماء، وهي روايا الأرض السحاب هذه التي تحمل الماء تسمى روايا الأرض، يسوقها الله سبحانه وتعالى على متون السحاب، والسحاب تحمله الرياح وتسير بها.

ثم أقسم سبحانه وتعالى بما فوق ذلك وهي: الجاريات يسرا وهي النجوم التي تكون غابرةً في السماء، وهي النجوم التي تكون من فوق الغمام.

ومعنى يسرا : أي مسخرة مذللة منقادة.

وبعض جماعةٌ من المفسرين: بأن المراد بقوله: والجاريات يسرا هي السفن، تجري ميسرةً في الماء جريًا سهلا، وهذا محتمل.

ثم أقسم سبحانه وتعالى بالملائكة، المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه، أمرت به بإنفاذه بين خلقه، وأقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور الأربعة وعظمها لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة فيها، على ربوبيته ووحدانيته وعظيم قدرته.

ثم أقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور أيضًا على صدق وعده، ووقوع جزاءه لذلك هو أقسم ...لأن مكانه العبرة وتتعلق هي بحياة هذا الإنسان، ثم أقسم سبحانه وتعالى على هذه الأمور، على صدق وعده ووقوع جزاءه بالثواب والعقاب.

فقال جلا وعلا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦].

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المُقسم به والمُقسم عليه، وجدته دالًا عليه مرشدًا إليه.

فهناك تناسبٌ عظيمٌ ظاهرٌ بين ما أقسم به ﷻ من ا لذاريات والحاملات والمقسمات، وبين جواب القسم وهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]، أي: الحساب والجزاء يوم الدين واقعٌ لا ريب فيه.

ثم أقسم سبحانه وتعالى بعدها بالسماء وحسن خلقها وإتقانها واستواءها، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧].

ثم ذكر النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨]، وهو أقوال الفقهاء وفي النبي ﷺ، وهو خرصٌ كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآرائهم وطرائقهم وأقوالهم، وفي ظني هذا الجواب أنكم في أقوالٍ باطلةٍ متناقضةٍ يُكذب بعضها بعضا.

وكقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ١ - ٤].

هذا أيضًا مثال آخر على هذا الوجه من الوجوه الدالة على هذه الخاصية، فالله ﷻ أقسم بالنجم عندها هويه ورمي الشياطين به عند استراق السمع، أقسم به على تنزيه رسول الله ﷺ وبراءته مما نسبه إليه أعداءه من الضلال والغيب.

ويكون سبحانه وتعالى قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة، التي نصبها الله سبحانه وتعالى آيةً وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له أعني آية النجوم، وعلى هذا فالارتباط بين المُقسم به والمُقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليلٌ على المُقسم عليه، فأقسم بالنجوم على سلامة رسول الله ﷺ عند تلقيه للوحي.

وكقوله أيضًا من هذه النماذج والأمثلة على هذا الوجه قوله ﷻ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥:٧٧].

والمناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المُقسم عليه وهو القرآن من وجوه أظهرها:

-أن النجوم جعلها الله سبحانه وتعالى يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هدايةٌ في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية.

فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس.

وكقوله أيضًا من الأمثلة على هذا الوجه المتعلق بهذه الخاصية الأولى، كقوله ﷻ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ١ – ٣].

فيظهر أن المراد بنفس الإنسان مطلقًا، فإن نفس كل إنسان لوامة كما أقسم بجنس النفس في قوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وجواب القسم يؤخذ من قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣]، لأنه دليل جواب إذ التقدير لنجمعن عظام الإنسان ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

وتأمل كيف قارن في المُقسم به بين يوم القيامة ونفس الإنسان، فالأول ظرفٌ للثاني وكلاهما شأنه عظيم، وتأمل أيضًا التناسب بين المُقسم به والمُقسم عليه.

ومن الوجوه أيضًا: قوله ﷻ الوجوه الدالة على هذه الخاصية، أنه جعل الآيات الكونية رحمة على العباد، وهذا في سائر الآيات الآفاقين التي امتن الله بها على عباده، أنها رحمةٌ لهم وهي في الغالب تكون ضمن اللفظ العام.

كلفظ: الخلق، أو الجعل، أو التسخير والتي تقترن كثيرًا بتلك الآيات الآفاقية، وقد ينص القرآن في مواضع عدة على أن تلك الآية هي رحمةٌ للعباد.

كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقوله: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فإذا كانت الآيات الآفاقية رحمةً للعباد، وبها معاشهم وهو مضطرون إليها، فلا ريب ستكون محل عنايتهم وتعظيمهم وحفاوتهم.

الوجه السادس: من الوجوه الدالة على هذه الخاصية، أنه جعل بعض الآيات الكونية سببًا للعذاب، وهو قابل الوجه السابق كالنجوم التي يرجم بها الشياطين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وكالريح التي عذب الله بها قوم عاد، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١].

وكالمطر الذي سلطه الله على بعض الأمم المكذبة لأنبيائها كقوم نوحٍ، وقوم لوط قال الله تعالى عن قوم نوح لما كذبوا نبيهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال عن لوط وقومه لما كذبوه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤].

فإذا كانت هذه الآيات الآفاقية مهيأةً لأن تكون عذابًا على البعض، فلا ريب سيكون أثرها على النفوس أشد، وكما أن الناس يرغبون فيما جعل الله فيها من الرحمة، فسيرهبونها أيضًا بما جعل فيها من العذاب، فستكون مرغوبةً مرهوبة مما سيزيد من العناية بها ويجعلها معظمةً في النفوس، والسعيد إلى من تنبه إلى أن مسخرها هو أكبر وأجل وأعظم.

أكتفي بهذا القدر في هذه المحاضرة، وألقاكم على خير إن شاء الله مع خاصيةٍ أو

خصائص أخرى في الحلقة القادمة، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرا.

أما بعد فهذه هي الحلقة التاسعة من حلقات برنامج ابن كثير في المستوى الثاني، في مقرر التفسير العلمي، وكان حدثينا في المحاضرة الماضية عن الخصائص خصائص منهج القرآن في تناوله للآيات الكونية والنفسية.

وتناولنا في المحاضرة الماضية الخاصية الأولى، واليوم إن شاء الله ستناول الخاصية الثانية، وهي: أن القرآن أناط بكثيرٍ من الآيات الكونية جملةً من الوظائف اللصيقة بالإنسان.

أن القرآن أناط بكثيرٍ من الآيات الآفاقية والكونية، جملةً من الوظائف اللصيقة بالإنسان، وهي جزءٌ من بيئته ومألوفةٌ ومسخرةٌ له، فالآيات الكونية المبثوثة في العالم العلوي كالسماء، والشمس، والقمر، والنجوم وغيرها من هذه الآيات.

وكذلك في العالم السفلي بما في الأرض من جبالٍ، وسهولٍ، وبحار، وأنهار، وأودية، ورياح، وسحاب مسخر بين السماء والأرض، ودوابٌ مختلفة قد أنيط بها وظائف محددة لصيقةٌ بالإنسان وخادمةٌ له.

فهي مسخرةٌ ومذللة ومألوفةً له، وهي جزءٌ أصيلٌ وكبيرٌ من البيئة التي يعيشها، فهي صديقةٌ له وقريبةٌ من مشاعره وأحاسيسه، ومن الشواهد على هذه الخاصية:

قوله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا

﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٠ - ١٨]، الآية العاشرة أي الآية الثامنة عشر من سورة النحل.

هذه الآيات تسوق لبيان كمال قدرة الله تبارك وتعالى وعظيم منته على عباده، وقد تناولت جملًا من المسخرات للعباد:

الجملة الأولى: تناولت الماء المنزل من السماء والذي عليه تكون حياة الإنسان، ومنه شرابه وبه طعامه على تنوعه وبه أيضًا علف دوابه، فهذا الماء وكيفيات نزوله وما يحدثه من أثرٍ هائلٍ تقف عليه حياة البشر والحيوان والنبات أيضًا عليه.

يُعد آية بل آياتٌ عظيمةٌ من آيات الله تعالى، والقرآن بمثل هذه الآيات يُنبه إلى العلاقة الحميمة الوثيقة بين الماء والإنسان، فإضافةً إلى كون الماء آيةً عظيمة دالةً على كمال قدرة الله تعالى.

وأيضًا منةً عظيمةً دالةً على عظيم فضل الله ﷻ على عباده، فهو وثيق الصلة بالإنسان، فحياته قائمةٌ على هذا الماء المبارك، وحواسه كلها تلتذ وتطرب وتأنس بهذا العنصر الفريد، الذي تفتقر له جميع الكائنات في الأرض أشد الافتقار.

الجملة الثانية: تناولت عددًا من الآيات المسخرة لمنافع الناس وأنواع مصالحهم، بحيث لا يستغنون عنها أبدا، وبالليل يسكنون وينامون ويستريحون، وبالنهار ينتشرون في معايشهم ومنافع دينهم ودنياهم.

وبالشمس والقمر الضياء والنور والإشراق وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة للأرض والأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، أي التي لابد فيها من الشمس والقمر.

وفيهما أيضًا وفي النجوم من الزينة للسماء، والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، فيلاحظ قرب الآيات من العباد، يلاحظ قرب هذه الآيات من العباد بشدة حاجتهم إليها، ولأنها أصبحت جزءً أصيلًا في حياتهم وسببًا لسعادتهم.

ولذلك فإن علاقتهم بها هي علاقة الإلف والحب والطمأنينة، ولهذا جمعها ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، أي لمن لهم عقولٌ يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأةٌ لها.

مستعدةٌ تعقل ما تراه وتسمعه، لا... للغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم، الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

الجملة الثالثة: تناولت عموم المسخرات في الأرض مما هو في باطنها، تناولت عموم مسخرات الأرض مما هو في باطنها وظاهرها من المخلوقات العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص.

فيدخل في هذه الجملة ما سخره الله للإنسان من المخلوقات، لتحقيق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، التي من أجلها خلق الإنس والجن وهي العبودية لله رب العالمين، ولذلك فالإنسان مفطورٌ على حب هذه المسخرات والتعلق بها حتى لتكاد تطغيه وتلهيه عن الآخرة.

وهذه الجمل الثلاث تضمنت في غالبها المسخرات في البر، ولذا أتبعها بما سخره الله لعباده في البحر وهي الجملة الرابعة.

الجملة الرابعة: فقد تناولت البحر كآية من آيات الله الكبرى، فقد خلقه الله على هيئةٍ عجيبة، تمكن من السباحة والغوص والصيد وسير الفلك عليه، لتحقيق مطالب هذا الإنسان.

فإن في هذا البحر من المسخرات: اللحم الطري، والسمك أيضًا الحوت ومنه

يستخرج اللؤلؤ المرجان، وعليه تسير السفن والمراكب التي تمخر في البحر للأمواج بمقدمها حتى تسلك فيه من قُطرٍ إلى قُطر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيره للركوب فيه، وجعل السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة.

وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حليةً يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه وقيل تمخر الرياح وكلاهما صحيح، بجؤجوئها وهو صدرها المسنن الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثًا عن أبيهم نوح عليه السلام فإنه أو من ركب السفن وله كان تعليم صنعتها.

ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل، يسيرون من قُطر إلى قُطر وبلدٍ إلى بلد وإقليمٍ إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك وما هنالك إلى هنا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، أي: نعمه وإحسانه انتهى كلام ابن كثير.

وتأمل كيف جعل الله هذا البحر الهائج المخيف جعله مسخرًا لهذا الإنسان صديقًا له، فهو ينقله على ظهره ويمنحه من كنوزه وعطاءه الكثير الكثير.

الجملة الخامسة: تناولت ثلاث نعم:

النعمة الاولى: نعمة إلقاء الجبال على الأرض لتحقيق رسوها.

النعمة الثانية: نعمة إجراء الأنهار للسقي والشرب والتنقل عليها، وهذه الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، ولهذا لعله لما ذكر الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار.

النعمة الثالثة: نعمة إيجاد السبل والطرق الظاهرة، التي يحتاجها الإنسان في أسفاره ورحلاته.

وهذه الثلاث الجبال، والأنهار، والسُبل هذه لها غرضٌ آخر بل تُعد علاماتٍ للإنسان يهتدي بها نهاره، والنجوم يهتدي بها في ليله، والمتأمل في الأغراض التي وجدت لأجلها الجبال والأنهار والسُبل والنجوم، يلحظ أنها تحتم على الإنسان أن يجعلها قريبةً منه أنيسةً له محبوبه.

ومن الشواهد أيضًا على هذه الخاصية قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٤]، الآية الثانية والثلاثون إلى الآية الرابعة والثلاثون من سورة إبراهيم.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير الآية الأولى يُعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفًا محفوظا، والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجًا من نباتٍ شتى.

وما بين ثمارٍ وزروع فأخرج به أزواجًا من نباتٍ وزروع، مختلفةً الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى.

وانطوى في تسخير الفلك تسخير الرياح التي تسيرها وسخر البحر يحملها، ليقطع المسافر بها من إقليمٍ إلى إقليمٍ آخر، بجلب ما هنا إلى هناك وما هناك إلى ها هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قُطرٍ إلى قُطر رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ وغير ذلك من أنواع المنافع، انتهى كلام ابن كثير.

ومعنى الآية الثانية: أن من تسخير الله لعباده أن جعل الشمس والقمر لا يقران ليلًا ولا نهارا، كيف هما يدأبان في سيرها وإنارتها ودرئها الظلمات، وإصلاحها ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات.

وجعل الليل والنهار خلفة لمعاشكم وسُباتكم، جعل الله الليل والنهار خلفة لمعاش العباد وسُباتهم أي: منامهم، والمتأمل في هاتين الآيتين يلحظ التأكيد على اختصاص الإنسان بهذه المسخرات وكأنها مُلكًا له، وهذا ظاهرٌ في تكرار قوله لكم ثلاث مرات في الآية الأولى، ومرتين في الآية الثانية.

ويؤكد هذا المعنى أنه لما ذكر تعالى تلك النعم والمسخرات العظيمة، أفاض بأنه لم يقتصر عليها فقال: وآتاكم من كل ما سألتموه أي أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألون إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال من أنعامٍ وآلاتٍ وصناعاتٍ وغير ذلك.

ثم إنه لكثرة هذه النعم نبه تعالى على عجز العباد عن تعدادها فضلًا عن القيام بشكرها، فقال: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، كما قال طلق ابن حبيب رحمه الله: (إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين).

ولما كان أكثر الناس لا يشكرون ختم الله ﷻ الآية بقوله: إن الإنسان لظلومٌ كفار، أي هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالمٌ متجرأٌ على المعاصي مقصر في حقوق ربه، كفارٌ لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه وعرف حق ربه وقام به.

ومن الشواهد أيضًا على هذه الخاصية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، الآية الخامسة عشرة من سورة الملك.

فاستعير وصف الذلول للأرض في تبرير الانتفاع بها مع صلابة خلقتها، تشبيهًا بالدابة المسوسة المرتاظة بعد الصعوبة، وفر على هذا الجعل أو هذا الجعل مذكور في الأمر في قوله: فامشوا في مناكبها.

فقوله: فامشوا في مناكبها مفرعٌ على قوله: جعل لكم الأرض ذلولا، وذكر المناكب لزيادة بيان تسخير الأرض للناس، فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل

المناكب استعارةً لأطراف الأرض أو لسعتها، والمعنى: فاسلكوا في جوانبها أو جبالها وهو مثلٌ لفرط التذليل، فإن منكب البعير أرق أعضائه إن منكب البعير هو أرق أعضائه وأنبأها من أن يطأه الراكب بقدمه.

فإذا جعل الأرض في الذل بحيث تتأتى المشي في مناكبها لم يبقى منها شيءٌ لم يتذلل، وصيغة الأمر مستعملةٌ في معنى الإدانة تذكيرٌ بما سخر الله لهم من المشي في الأرض امتنانًا بذلك.

ويترتب على هذه الخاصية المهمة أمور:

منها: تساوي الناس في أصل الشعور بهذه الآيات الكونية وإدراكها، فالناس يتساوون في أصل ذلك ويتفاوتون في كماله.

ومنها: هذا الإدراك فلا تحتاج إلى واسطةٍ من الآلات ونحوها، فإدراك هذه الآيات أمرٌ سهلٌ ميسرٌ قريب.

ومنها: ما يحصل بينها وبين الإنسان من أُنس، ومحبة، وعشق، هذا ظاهر وذكرناه في أثناء الاستدلال بالآيات التي مرت قبل قليل.

ومنها: أن هذه الآيات مسخرةٌ للإنسان، فهي تحقق مقاصده ومطالبه في العيش في هذه الدنيا، إذًا هي تحقق مقاصد الإنسان ومطالبه في العيش في هذه الدنيا، فكل هذه الوجوه ترتبت على هذه الخاصية وتؤكد هذه الخاصية وتجليها.

هذا ما تيسر في هذه الحلقة حديثًا عن هذه الخاصية، وإن شاء ألقاكم إن شاء الله في حلقاتٍ قادمة، لنستكمل هذه الخصائص المتعلقة بمنهج القرآن في تناول الآيات الكونية والنفسية.

أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه وألقاكم على خير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:-

فهذه هي الحلقة العاشرة من حلقات برنامج ابن كثير للمستوى الثاني في مقرر التفسير العلمي. وتناولنا في حلقتين سابقتين الخاصية الأولى والخاصية الثانية من خصائص منهج القُرآن في تناول الآيات الكونية والنفسية، واليوم سنتناولُ الخاصية الثالثة وبعدها أيضاً في المحاضرة القادمة أي إننا في هذه المحاضرة والمحاضرة القادمة سنستكمل إن شاء الله هذه الخصائص، وسنتناول في هذا اليوم بعض الخصائص ونستكملها بإذن اللهِ في المحاضرة أو الحلقة القادمة.

اليوم سنبدأ بالخاصية الثالثة وهي أن القُرآن يتناولُ الآيات الكونية بعبارةٍ جلية وأسلوبٍ سهلٍ قريب. إذاً هذه طريقة تناول القُرآن لهذه الآيات سواءٌ كانت آفاقية أو آيات نفسية كلها يتناولها بعبارةٍ جليةٍ وأسلوبٍ سهلٍ قريب وذلك أنه لما كان الغرض الأكبر من تلك الآيات الآفاقية والنفسية وهو تقرير التوحيد وأمر المعاد ونحوها من أصول الدين بما تضمنته من حقائق ضخمة ودلائل عظيمة على قدرة اللهِ وسعة علمه ودقيق صنعه، ولما كان المخاطبون بهذا القُرآن مختلفين في مستوى إدراكهم كما أنهم مختلفون في علومهم وثقافاتهم بحسب الزمان والمكان لما كان الأمرُ كذلك، لا جرم جاء عرض القُرآن للآيات الكونية والنفسية بهذه الكيفية القريبة الميسرة بحيث يتحقق بها على الأقل الحد الأدنى من العظة والاعتبار وهو كافٍ في إقامة الحجة وتحقيق مقصود القُرآن من هذا العرض.

ولعل هذه الخاصية تعود في أصلها إلى عظيم قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] الآية السابعة عشرة، والثانية والعشرون، والثانية والثلاثون والأربعون من سورة القمر. أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده والانتفاع به لأنه أحسنُ الكلام لفظاً وأصدقه معنىً وأبينه تفسيراً.

وبمعنى الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، الآية الثامنة والخمسون من سورة الدخان.

يقول الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحدٌ من الخلق أن يتكلم بكلام اللهِ ﷻ.

وهذا اليُسر المذكور في الآيتين حاصلٌ في القُرآن من وجوهٍ متعددة، في مبانيه ومعانيه وحروفه ولغته، فقد جاء تأليف نظم القُرآن بلغةٍ هي أفصح لغات البشر وهذا اليسر المذكور في الآيتين حاصل في القُرآن من وجوه متعددة في مبانيه ومعانيه وحروفه ولغته، فقد جاء تأليف نظم القُرآن بلغةٍ هي أفصح لغات البشر وأسمحها ألفاظاً وتراكيب وأغزرها معاني ودلالات.

ولذا فإن هذه الخاصية ظاهرةٌ في جميع الآيات الكونية، ظاهرة في جميع الآيات الآفاقية والنفسية التي يسوقها القُرآن. مثال ذلك، خذ مثال على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠] الآية السابعة عشرة إلى الآية العشرين من سورة الغاشية.

فأمر تعالى عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته، فبدأ بالإبل من بين سائر مخلوقاته فإنها خلقٌ عجيب وتركيبٌ غريب، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلينُ للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف حتى إن الصبي الصغير يأخذُ بذمامها فيذهبُ بها حيثُ شاء، ويؤكلُ لحمها وينتفعُ بوبرها ويشربُ لبنها، ونبه العربُ على ذلك لأنهم كان غالبُ دوابهم، أو كانت الإبل غالب دوابهم.

وسُئِلَ الحسن عن هذه الآية وقيل له: الفيل أعظمُ في الأعجوبة؟ فقال: أما الفيل: فالعربُ بعيدةٌ العهد به، بهذه الفيلة، ثم هو لا خير فيه، لا يركب ظهره ولا يؤكلُ لحمه، ولا يحلبُ ضره. والإبلُ أعزُ مالٍ للعرب وأنفسها تأكلُ النوى والقت وتخرج اللبن.

ثم إن الإبل سفائر البر صبرها على احتمال العطش عجيب وهي ترعى كل شيء نابت، في البراري والمفاوز مما لا يرعى سائر البهائم، وهي من بين سائر الدواب تبركُ حين يحملُ عليها ثم تقومُ بحملها.

وقوله: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٨] أي انظروا إلى السماء كيف رفعت، أي كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض هذا الرفع العظيم بلا عمادٍ ولا مساك كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، الآية الثانية من سورة الرعد. وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] الآية السادسة من سورة ق.

وقوله: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٩] أي جعلت منصوبةً قائمةً ثابتة راسية لئلا تميل الأرض بأهلها وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

وقوله: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠] أي كيف بسطت ومُدت ومُهدت.

يقول السعدي عند تفسيره لهذه الآية: وأعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كُرة مستديرة قد أحاطت الأفلاكُ فيها من جميع جوانبها كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور ومعروف عند أكثر الناس خوصاً في هذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد؛ لأن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً الذي هو لو سطحَ لم يبقى له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة فيكونُ كروياً مسطحاً ولا يتنافي أمران كما يعرفُ ذلكَ أرباب الخبرة. انتهى كلام السعدي.

والمقصودُ أن القُرآن خاطبَ بمثل هذه الآيات أدنى الناس علماً وثقافة. ونبه إلى دلائل توحيده بأسهل عبارةٍ وأوضحها من خلال أمورٍ يعيشونها وهي جزءٌ يسيرٌ من حياتهم اليومية.

بل قال الحافظ ابن كثير بعد تفسيره لهذه الآيات: فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماءُ التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة الخالقِ، أو على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الربُ العظيم الخالق المتصرف المالك وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. انتهى كلام ابن كثير.

وتأمل أيها الفاضل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] الآية الرابعة والعشرون إلى الآية الثانية والثلاثين من سورة عبس.

والأبَّ معلوم للمخاطبين وهو تأكله البهائم والأنعام ولهذا قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢].

فهذه الآيات الكريمة الواضحة التي يدركها الأُمي كما يدركها المتعلم هي دعوةٌ للإنسان بالنظر في أخص حاجاته ومطالبه المادية في هذه الدنيا، وهو الطعام والشراب بأسلوبٍ وكلماتٍ هي الغاية في السهولةِ والقرب مع ما تحمله هذه الآيات من العبرةِ والتذكرةِ الكُبرى، فإن من كان عنده أدنى تأمل بهذه الآيات يدركُ منها أن إخراج طعامه من الأرض كما هو ظاهرٌ مشاهد هو دليلٌ على إخراجه هو منها بعد موته استدلالاً بالنظيرِ على النظير.

وشبيهٌ بهذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٤] الآية الثالثة والستون إلى الآية الرابعة والسبعين من سورة الواقعة.

فهذه الآيات تتناول أخص حوائج الإنسان وهو الطعام والشراب من حيث طريقة تحصيله، وكذلك النار كوقودٌ لا يستغني عنه الإنسان البتة.

وقد صيغت تلك الآيات بأسلوب الاستفهام بكلماتٍ واضحةٍ مؤثرة.

أنتقل للخاصية الرابعة من خصائص منهج القُرآن في عرضه للآيات الآفاقية والنفسية: أنه يتناول الآيات الآفاقية على اختلافها وكأنه آيةٌ واحدة، وذلك أنه متأمل في منهج القُرآن في عرضه للآيات الكونية أنه يعرضها باعتبارها منظومةً واحدة محكمةً في خلقها بديعةً في سلكها، وبهذا تظهر للناظر روعةُ تلك الآيات الكونية لا في أفرادها فحسب بل في تناسقها وترابطها ترابطاً محكماً يأخذُ بالألباب، وهذا يوحي بأن هذا الكون وحدةً واحدة بُني بإحكامٍ عجيب ومبدعه واحد كاملٌ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

ومن ذلك قوله ﷻ، من الدلالة على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠] الآية السابعة والثلاثون إلى الآية الأربعين من سورة يس.

فالآية الأولى تناولت مجيء الليل وذهاب النهار كآية من آيات الله في هذا الكون الدال على كمال قدرة الله تعالى. ولما كان الليل هو الأصل فإن ضوء النهار يغشاه في نصف الكرة الأرضية ثم ما يلبث هذا الضوء أن يُنزع عن الليل كما ينزعُ جلد الشاةِ عنها فتعود الظلمة إلى هذه النصف من الأرض.

ولما كانت الآية الكونية مرجعها إلى ضوء الشمس بين في الآية الثانية أنها دائماً تجري لمستقرٍ لها، قدرها اللهُ لها لا تتعداه ولا تقصر عنه. وأن ليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى، فإنه بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام، وبعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم.

بين تعالى في الآية لما كان نور القمر، ولما كان نور القمر مستفادًا أيضًا من ضور الشمس، بين تعالى في الآية الثالثة حال القمر ومنازله المقدرة، التي ينزل بها كل ليلة حتى يصغر جدًا فيعود كعرجون النخلة.

ثم ما يزال بعد ذلك يزيد شيئًا فشيئا حتى يتم نوره ويتسق ضياؤه، ولما كان ... الآيات السابقة هو في ضوء الشمس ونور القمر، بين تعالى في الآية الرابعة حال هذين النيرين، لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوؤها بضوئه، فتكون الأوقات كلها نهارا لا ليل فيها.

ولليل الاختفاء في النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه، فتكون الأوقات كلها ليلا وكل في فلكٍ تجرون، فظهر جليًا كيف أظهرت الآيات القرآنية قوة الترابط بين آيات الشمس والقمر والليل والنهار.

ومن الشواهد أيضًا على هذه الخاصية قوله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، الآية العاشرة والحادية عشرة من سورة لقمان.

هذه الآيات تتناول أيضًا آثارًا من آثار قدرة الله تعالى وحكمته، ونعمًا من آثار رحمته فقد خلق السموات السبع على عظمها وسعتها وكثافتها على وارتفاعها الهائل بلا عمل، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالى.

ولما كانت الأرض ممهدةً لحياة الإنسان ألقى فيها الجبال العظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض ولما استقرت بساكنيها، ونشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرةٌ لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم.

ولما بثها في الأرض علم تعالى أنه لابد لها من رزقٍ تعيش به فأنزل من السماء ماءً

مباركا، أنبت الله نباتًا من أزواجًا شتى فرتعت فيه الدواب المنبثة وسكن إليه كل حيوان، والمتأمل في يرى أن العلاقة ظاهرة بين هذه الآيات في السماء وهي سقفٌ محفوظٌ للإنسان، والأرض مهادٌ له وقد رُسيت بالجبال وبُث فيه الدواب لخدمة مصالحه.

الخاصية الخامسة من خواص منهج القرآن في عرضه للآيات الكونية والنفسية: أنه يعرض الآيات الآفاقية والنفسية، مقرونةً بالغرض التي سيقت له، وهذا الغرض أو الأغراض تمثل حقائق هائلة يقوم عليها دين الإسلام، كالتوحيد والنبوة والبعث.

بيد أن من أهم الأغراض التي عني القرآن بها عند عرض الآيات الآفاقية والنفسية غرضين:

الأول: الاستدلال بتلك الآيات على كمال الله تعالى، في أسمائه وصفاته وأفعاله.

الثاني: الاستدلال بها البعث والنشور.

فمن الأول قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦١ - ٦٥].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية: تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وجزيل فضله ووجوب شكره وكمال قدرته وعظيم سلطانه وسعة ملكه لجميع الأشياء.

وكمال حياته واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة وتمام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم السفلي والعلوي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحدٍ من الأمر شيء ولا من القدرة شيء انتهى كلامه.

ومن أكثر الصفات اقترابًا بالآيات الآفاقية والنفسية، صفات القدرة والعلم والحكمة مع ... امتنانه ﷻ على عباده فيما خلق لهم وسخر من آيات.

ومن الوجه الثاني ودلالته على البعث قوله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، سورة الحج من الآية الخامسة إلى الآية السابعة.

عرضت هذه الآيات دلائل البعث، بداية من أطوار الحياة في جنين الإنسان، ودورة حياة النبات، مقررًا تشابه الصورتين ... يمتلكها الأطوار المطردة الثابتة للإنسان والنبات، وبين أن الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيءٍ قدير، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وكلها سننٌ مطردةٌ وحقائقٌ ثابتة، ومن الأول الثاني الأدلة على الأول وهو الآيات الآفاقية، والثاني الآيات النفسية قوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

يقول السعدي رحمه الله عن تفسيرها: وحاصل هذا أن ما فيها من الخلق الباهر والشدة والقوة، دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى وما فيها من الحُسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلقة، دليلٌ على أن الله أحكم الحاكمين وأنه بكل شيءٍ عليم.

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليلٌ على رحمة الله التي وسعت كل شيء،

وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة وبديع النظام دليلٌ على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا ولم يكن له كفوًا أحد.

وأنه الذي لا تنبغي عبادته الحب والذل إلا له تعالى، وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليلٌ على إحياء الله للموتى ليجازيهم بأعمالهم وبهذا قال: وأحيينا به بلدةً ميتا كذلك الخروج انتهى كلامه.

وهناك أغراض أخرى دينية ودنيوية تقترن بالآيات الآفاقية والنفسية، وقد اقتصر على غرض الدين فقط كمثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، الآية الثانية والستون من سورة الفرقان.

وقد اقتصر في الآيات الآفاقية على الغرض الدنيوي فقط كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١]، الآية عشرة والحادية عشرة من سورة النبأ.

أكتفي بهذا القدر من هذه الخصائص، وأستكمل إن شاء الله بقية الخصائص في الحلقة القادمة إن شاء الله، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

فهذه هي الحلقة الحادية عشرة من حلقات برنامج "**ابن كثير**" المستوى الثاني في "**مقرر التفسير العلمي**"، وحديثنا كان في المحاضرات الثلاثة التي مضت في موضوع خصائص منهج القرآن في عرضه أو تناوله للآيات الآفاقية والنفسية، ومضى من هذه الخصائص خمس خصائص، وبقي خمس خصائص سنتناولها -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ- في هذه المحاضرة.

وقد وقفنا عند الخاصية السادسة، انتهى بنا الحديث عند الخاصية السادسة، وهي: أنه القرآن يقرن غالبًا بين الآيات الآفاقية والنفسية لحكمةٍ بالغة، وهذا الاقتران يأتي مجملاً ويأتي مفصلًا.

أما إتيانه مجملاً ففي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٣، ٤] فقرن بين خلق السموات وبين خلق الإنسان، ولكنه جاء مجملًا، فخلق السموات والأرض يتضمن آيات كثيرة، أجملها بكلمات معدودة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يدل على أن خلقها كان لحكمةٍ بالغة، كذلك أوجز في آية خلق الإنسان وأطوار هذا الخلق، وأشار قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ إلى حكمةٍ عظيمة من خلق الإنسان على هذا النحو.

قال الحافظ ابن كثير: "**ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ** ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ **أَيْ: ضَعِيفَةٍ مَهِينَةٍ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ ودَرَج إِذَا هُوَ يُخَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيُكَذِّبُهُ، وَيُحَارِبُ رُسُلَهُ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضدًا، كما قال تعالى:** ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ

ظَهِيرًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٥٤-٥٥] ، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩]".

ومن صور إتيانه مجملاً أيضًا قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:٢٠-٢٢] فقرن بين الآيات الكونية والآيات النفسية، لكنه كان تناولها بإجمال.

يقول السعدي في تفسير هذه الآيات من سورة الذاريات: "**وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار، وأنهار، وأشجار، ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه، بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى**".

"**وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي مادة رزقكم، من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه يترل من عند الله، كسائر الأقدار**".

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[الليل:١-٤] وهنا أيضًا قرن بين الآيات النفسية والآيات الآفاقية، لكنه بإجمال.

أما إتيان الاقتران مفصلًا، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:٩٥-٩٩].

جاء الحديث في هذه الآيات عن خلق الإنسان ونشأته في آية واحدة توسطت الآيات الآفاقية.

فالآية الأولى: خبرٌ من الله تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف أشكالها وطعومها من النوى.

ولهذا فسر قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[يس:٣٣].

وقيل: إن التناسب بين هذين الأمرين المتقابلين أقوى من التناسب بين الثاني وبين فلق الحب والنوى، ولذلك ورد بصيغة الفعل في سورة "**يونس والروم**": ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[يونس:٣١]، [الروم:١٩].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي أن الذي فعل ما فعل وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها هو الله ربكم الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه فأنى تُصرفون وتصدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا.

والآية الثانية بيَّنت منته تَبَارَكَ وَتَعَالَى بتهيئة المساكن وخلقه ما يحتاج إليه العباد من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح، فكما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصبح الذي يفلقه شيئًا فشيئًا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها. ويخلفه الضياء والنور العام الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة، كما أنه تعالى ﴿الشمس وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

ثم خُتمت الآية ببيان أن هذا التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه، بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

والآية الثالثة تناولت خلق هذه النجوم لمنافع العباد والتي ذكر منها هنا: أن الله جعلها دليلًا لراكب البر والبحر إذا ضل والطريق.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة.

وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله، فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه وحكمته والمبدأ والمعاد والنبوة، ودلالته على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية، فهي هداية في هذا وهذا.

والآية الرابعة تناولت آية أخرى من آياته تعالى الدالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته، وهي أنه أنشأنا تعالى مع كثرتنا من نفس آدم عليه السلام، وصار الإنسان في خلقه يمر بأطباقٍ عديدة؛ ولذا قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

قال أبو حيَّان: "**وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ أَنَّ الِاسْتِقْرَارَ وَالِاسْتِيدَاعَ حَالَانِ يَعْتَوِرَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ**" أي: يطرآن عليه، "**مِنَ الظَّهْرِ إِلَى الرَّحِمِ إِلَى الدُّنْيَا إِلَى الْقَبْرِ إِلَى الْحَشْرِ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ، وَفِي كُلِّ رُتْبَةٍ يَحْصُلُ لَهُ اسْتِقْرَارٌ وَاسْتِيدَاعٌ اسْتِقْرَارٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا قَبْلَهَا وَاسْتِيدَاعٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا وَلَفْظُ الْوَدِيعَةِ يَقْتَضِي الِانْتِقَالَ**". انتهى كلامه.

والآية الخامسة عادت لتناول آية كونية أخرى، أشارت إليها الآية الأولى من هذا المقطع، وهي خلق أنواع النبات من ماءٍ واحد، فالله تعالى أخرج بالماء الذي أنزله من السماء لإرواء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذَّون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون.

فمعنى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخرجنا ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح.

ويلاحظ في هذه الآيات الكونية والنفسية أن هناك تشابهًا بينها من حيث أصل مادتها، ومن حيث مرورها بأطوار ومراحل متعددة حال خلقها، إشارةً إلى أن خالقها ومدبرها واحد، لا إله غيره، ولا رب سواه.

ولذلك فلعل الغرض من عرض هذه الآيات الكونية وكذلك النفسية على هذا النحو هو لأمورٍ من أهمها:

أولاً: أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو موجدها من العدم، وأنه تعالى جعل لها أصلًا تتولد منه، فكما أن الحب والنوى هو أصل النبات، فكذلك آدم هو أصل الإنسان، بل إنها تشترك في أن سبب تولدها هو الماء، فماء السماء هو سبب نبات الأرض، والماء الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو سبب خلق الإنسان.

الثاني: هو أنه كما أن النبات يمر في نشأته ونموه في أطوارٍ تنتهي به إلى ثمارٍ مختلفة الطعوم والألوان، فكذلك الإنسان في خلقه ونشأته يمر بأطباقٍ وأطوار ومراحل تنتهي به إلى آية وثمرةٍ إما عظيمة المرارة أو عظيمة الحلاوة، فهو إما إلى جنة أو إلى نار.

وهذا الغرض أيضًا ملحوظ، بل ظاهر في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾[المؤمنون:١٢-٢١].

فالآية الأولى بينت أصل خلق الإنسان. والآية الثانية بينت الماء الذي جعله الله سببًا لتولد الإنسان. والآيات الثلاث بعدها بينت أطوار خلقه في الدنيا إلى منتهاه في الآخرة إما إلى جنة وإما إلى النار. والآيات الأربع الباقية تناولت السماوات السبع وما فيها من العجائب، والأرض وإحياء الله إياها بماء السماء بما ينبت فيها من أنواع الأشجار والثمار.

وكذلك هو ملحوظ في مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:١٧-٢٤].

وذلك أن الله تعالى لمَّا بيَّن كماله في أسمائه وصفاته وأفعاله ونزه نفسه عن النقص، بيّن تعالى أن من دواعي ذلك أن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهذه قاعدة عامة تنطبق على صور كثيرة من دلائل قدرة الله تعالى.

وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- من ذلك إحياء الأرض الميتة بالمطر وخلق الإنسان من تراب، وبين أصل خلقه وأشار إلى المراحل والأطوار التي يمر بها، ثم فصَّل في كيفية توالد الإنسان بخلق الزوجة، بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ثم أدمج في بقية الآيات بين الآيات النفسية والآيات الآفاقية على نحوٍ بديع، فجمع بين خلق السموات واختلاف الألسنة والألوان.

وذكر الطاهر ابن عاشور: "**أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ آيَةُ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَأَنَّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض تمهيد لَهُ وَإِيمَاءٌ إِلَى انْطِوَاءِ أَسْبَابِ الِاخْتِلَافِ فِي أَسْرَارِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**".

كما بيّنت الآية التي تليها تسخير الليل والنهار للإنسان ليسكن ويطلب المعاش، وفي الآية الأخيرة دمج بين ذكر آيات البرق والمطر وحال الناس معها.

الخاصية السابعة: أن القرآن يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة ليستدل بالثاني على الأول.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر:١] فقرن بين الأمر الغيبي وهو قرب الساعة وحتمية وقوعها، وبين أمر مشاهد وهو انشقاق القمر، وهو يشير إلى مقدمات القيامة التي منها تعطل الآيات الكونية وخرابها.

ومنه قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾[البروج:١-٢]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ آية مشاهدة، ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أمر غيبي.

ومنه قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة:١-٢]، أقسم بأمر غيبي وهو يوم القيامة، كما أقسم بأمر معلوم وهو النفس اللوامة، وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت لوامة لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولهذا عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق أو غفلة.

الخاصية الثامنة: أن القرآن كثيرًا ما يقرن بين الآيات الكونية وبين الآيات القرآنية إشارة إلى وحدة مصدرها، وهو الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٢-٤].

والشاهد هو قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾، قال السعدي: "وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ **هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.**

ويترل الكتب الإلهية على رسله ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ **بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية،** ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ **فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصًا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور**". انتهى كلام السعدي.

ويدل على هذه الخاصية أيضًا قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

والشاهد هو قوله: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ الخلق يتضمن الآيات الآفاقية والنفسية، والأمر يتضمن الآيات القرآنية. قال السعدي: "أي: **له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية**". انتهى كلامه.

وقال ابن عثيمين: في قوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ فجعل الأمر غير الخلق، والقرآن من الأمر لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾[الشورى:٥٢].

ومما يدل على هذه الخاصية كذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٣-٤٦].

فلما ذكر تعالى من الآيات الآفاقية ما يتعلق بإنزال المطر والبَرَد وآياته في تقليب الليل والنهار، وآياته فيما خلق من أنواع الدواب، وقد جاء عرض هذه الآيات على أحسن وجه، ختمه بالتمدُّح بآيات القرآن والإشادة بها.

الخاصية التاسعة: كثيرًا ما يقرن بين الوحي الذي تحيا به القلوب والغيث الذي تحيا به الأرض لغاية جليلة، وهي إظهار أهمية واضطرار العباد للوحي وهو أشد اضطرارهم من الطعام والشراب.

والشاهد على هذه الخاصية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[النحل:٦٤-٦٥].

يقول الحافظ ابن كثير عند تفسيرها: "**وَكَمَا جَعَلَ تَعَالَى الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا يُنْزِلُهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**".

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٢١-٢٣].

بيَّن في هذه الآية الأولى كيف يحيي الأرض بالماء النازل من السماء، فإذا انقطع هذا الماء وذهب أثره على الأرض عادة قاحلة. وفي الآية الثانية ذكر القلوب القاسية التي لم تستضيء بنور الوحي ولم تتشرب غذاءه، وفي الآية الثالثة أشاد بالقرآن وبالوحي النازل، فبه تحيا القلوب وتزول عن قسوتها وجدبها.

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الحديد:١٦-١٧].

في الآية الثانية تمثيل لآثار الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

قال الحافظ ابن كثير: وقوله: "﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ، تَعَالَى، يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويَهدي الحَيَارى بَعْدَ ضَلتها، ويفرِّج الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الهتَّان الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ**". انتهى.

الخاصية العاشرة والأخيرة: إن هذه الأجرام التي أبدع الله فيها الكون على عظمها وإحكامها لا تملك لنفسها شيئًا، فهي مسيرةٌ ولها مبتدأ ومنتهى، فهي خلقت لغاية، ثم ليكون تغيرها وخرابها علامة على قيام الساعة، ثم في نهايتها ترمى هذه الأجرام في النار، ومعظم شواهد هذه الخاصية جاءت في سور المفصل.

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾[الطور:٩-١٠] إلى آخر الآيات التي تناولت هذه الخاصية فهي منثورة في سور المفصل.

أكتفي بهذا القدر من هذه الدلائل على هذه الخاصية، وأختم بها هذه المحاضرة، أسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

فهذه هي الحلقة الثانية عشرة من سلسلة حلقات مقرر "**التفسير العلمي لابن كثير**" المستوى الثاني، وحديثنا هذا اليوم سيكون -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- عن نماذج من التفسير العلمي في مجالات الكون.

نبدأ على بركة الله:

الأنموذج الأول: وهو أنموذج يتعلق بالإشارات الفلكية.

قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٣٧-٤٠].

نقف عند الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ نريد أولاً أن نتعرف على معنى السلخ، وهي الكلمة المؤثرة في هذه الآية، والسلخ في لغة العرب هو الكشط والإزالة بالكلية عن باقي جميع جسم المكشوط.

قال ابن دريد: سلخت الشاة وغيرها أسلخها سلخًا إذا كشطت عنها جلدها والشاة سليخٌ ومسلوخ.

ويقول الأصمعي: تقول العرب: جلدت البعير وسلخت الشاة، ولا كدون يقولون سلخت البعير، وكل شيءٍ خرج من شيء فقد انسلخ منه، وفي التنزيل: ﴿فَانسَلَخَ

مِنْهَا﴾[الأعراف:١٧٥]، وجئتك في سلخ شهر رمضان وغيره من الشهور، أي: في آخر ليلةٍ منه. والأسلخ قالوا في بعض اللغات: هو الأصلع. انتهى كلامه.

والأزهري يقول أيضًا في تهذيب اللغة: "قَالَ اللَّيْث: السَّلْخُ كَشْطُ الإهاب عَن ذِيهِ، والمِسْلاَخ: الإهابُ نَفسه، ومِسْلاخُ الحَيّةِ قِشْرُها الَّذِي يَنْسَلِخ مِنْهَا، وكلُّ شَيْء يَنْفَلِقُ عَن قِشْره، يُقَال: انْسَلخ، والإنسانُ إِذا مَحَشَهُ الحَرُّ يُقَال: قد سَلخ الحَرُّ جِلْدَهُ وسلختِ المرأةُ دِرْعها عَنْهَا يعني: إذا خلعْته.

وَيُقَال: سلختُ الشَّهْرَ إِذا خرجْتَ مِنْهُ فصرْتَ فِي أخرِ يومٍ مِنْهُ.

وَقل أَبُو الْهَيْثَم فِي قَول الله عَزَّ وَجلّ: ﴿وءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧] ".

يُقَال: "سَلَخْنَا الشهرَ" أَي: "خرجْنا مِنْهُ، فَسَلَخْنَا كلَّ ليلةٍ مِنْهُ عَن أَنْفُسنَا جُزْءاً من ثَلَاثِين جُزْءا، حَتَّى تكاملتْ لَياليه فَسَلَخْنَاهُ عَن أَنْفُسنا كُلَّه.

قَالَ: وأهللْنَا هِلال شهر كَذَا أَي دخَلْنَا فِيهِ ولبِسْنَاه، فَنحْن نَزْدادُ كلَّ لَيْلَة مِنْهُ إِلَى مُضِيِّ نِصْفِه نزداد لِبَاساً مِنْهُ، ثمَّ نَسْلُخه عَن أنفُسنا بعد تَكامُلِ النِّصْف جُزْءا فجزءاً، حَتَّى نَسلخَهُ عَن أنفُسنا كلَّه".انتهى كلامه.

هذا ما قاله العرب أو ما جاء عند العرب في معنى السلخ وهو ظاهر، وليس فيه اختلاف ولا اضطراب، فالسلخ سيتبين لنا من التفسير عند السلف أنه مطابق لذلك.

التفسير عند السلف لهذه الآية: الإمام الطبري -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يقول في هذه الآية: "نَنْزِعُ عَنْهُ النَّهَارَ وَمَعْنَى مِنْهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: عَنْهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَسْلَخُ عَنْهُ النَّهَارَ، فَنَأْتِي بِالظُّلْمَةِ وَنَذْهَبُ بِالنَّهَارِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]" فالانسلاخ في هذه الآية هو بمعنى الانسلاخ في الآية التي هي محل البحث، فيقول الطبري: "﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] أَيْ خَرَجَ مِنْهَا وَتَرَكَهَا، فَكَذَلِكَ انْسِلَاخُ اللَّيْلِ مِنَ النَّهَارِ" يعني: إذا كانت آية الأعراف السابقة معنى انسلخ منها أي: إن خرج منها وتركها، فكذلك انسلاخ الليل من النهار، يقول الطبري: "وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧] يَقُولُ: فَإِذَا هُمْ قَدْ صَارُوا فِي ظُلْمَةٍ بِمَجِيءِ

اللَّيْلِ" وفي الحقيقة هو ليس مجيء لليل، بل الليل كان موجودًا، ولكن النهار كان يغطيه فلما سُلخ منه النهار ونُزع منه ظهرت الظلمة وظهر الليل.

قال الطبري: "**وَقَالَ قَتَادَةُ فِي ذَلِكَ مَا: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ:** ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧] **قَالَ: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ»**" هذا ما قاله قتادة، يقول الطبري: "**وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ فِي ذَلِكَ عِنْدِي مِنْ مَعْنَى سَلْخِ النَّهَارِ مِنَ اللَّيْلِ بَعِيدٌ**" استبعد الطبري قول قتادة، ولماذا؟ يقول: "**وَذَلِكَ أَنَّ إِيلَاجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ إِنَّمَا هُوَ زِيَادَةُ مَا نَقَصَ مِنْ سَاعَاتِ هَذَا فِي سَاعَاتِ الْآخَرِ، وَلَيْسَ السَّلْخُ مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ**".

فالطبري يقول: إننا عرضنا ما قاله قتادة على لغة العرب، ولغة العرب كما تقدم قبل قليل تدل على أن السلخ ليس زيادة هذا في هذا أو نقص هذا وزيادة هذا، لا، إنما السلخ هو نزع بالكلية، كما يُنزع الجلد من صاحبه، فيقول: "**وَلَيْسَ السَّلْخُ مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ النَّهَارَ يُسْلَخُ مِنَ اللَّيْلِ كُلِّهِ، وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ كُلِّهِ، وَلَيْسَ يُولِجُ كُلَّ اللَّيْلِ فِي كُلِّ النَّهَارِ**" يعني الإيلاج هو يكون في جزء من النهار من جزء من الليل، هذا معنى كلام الطبري، ثم يقول: "**وَلَيْسَ يُولِجُ كُلَّ اللَّيْلِ فِي كُلِّ النَّهَارِ، وَلَا كُلَّ النَّهَارِ فِي كُلِّ اللَّيْلِ**" انتهى كلام الطبري.

أيضًا يقول الحافظ ابن كثير تعليقًا على تحفظ الطبري على كلام قتادة يقول ابن كثير: "**وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ حَقٌّ**" ابن كثير يؤيد ابن جرير على توقفه في تفسير قتادة لهذه الآية.

وقال البغوي في تفسير آية يس: "﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ **تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِنَا،** ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ **نَنْزِعُ وَنَكْشِطُ** ﴿مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ **دَاخِلُونَ فِي الظُّلْمَةِ، وَمَعْنَاهُ: نُذْهِبُ النَّهَارَ وَنَجِيءُ بِاللَّيْلِ**" على المعنى كما قلت قبل قليل يعني: هو يذهب النهار بسلخه فيظهر الليل، "**وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ هِيَ الظلمة والنهار دَاخِلٌ عَلَيْهَا**" فإذا كان الأصل هو الظلمة والنهار داخل عليها فيكون إذا ذهب النهار ظهر الليل بظلمته لأن النهار كان داخلاً على الظلمة فذهب عنها فظهرت الظلمة، يقول البغوي: "**فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ سُلِخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ**" هذا صحيح، انتهى كلام البغوي.

وأيضًا أبو السعود يقول: "**وقوله تعالى**: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ **جملةٌ مبيِّنة لكيفيَّةِ كونه** آيةً" فأبو السعود يريد أن يربط بين هذه الآية الجملة والتي قبلها، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾ ثم قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، فقال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ هذه جملة تبيّن الآية المذكورة في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ فيقول أبو السعود: "**وقوله تعالى**: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النهار﴾ **جملةٌ مبيِّنة لكيفيَّةِ كونِه آيةً، أي نُزيله ونكشفُه عن مكانه**" ما زال الكلام لأبي السعود يقول: "**مستعارٌ من السَّلخِ وهو إزالةُ ما بين الحيوانِ وجلدِه من الاتِّصالِ والأغلبُ في الاستعمالِ تعليقُه بالجلدِ، يقال: سلختُ الإهابَ من الشَّاةِ وقد يُعكس ومنه الشَّاةُ المسلوخةُ**" يقول: وقد يعكس يقال سلخت الشاة من الإهاب، يقول أبو السعود: "**وقد يُعكس ومنه الشَّاةُ المسلوخةُ**، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ **أي: داخلونَ في الظَّلامِ مفاجأةً، وفيه رمزٌ إلى أنَّ الأصلَ هو الظَّلامُ والنُّورُ عارضٌ**" يعني كلمة السلخ و﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ تشير إلى أن الأصل هو الظلمة، وأن الضوء أو النهار أو النور عارض، ولذلك هو الذي يُسلخ ويزال.

وقول أبي السعود: "﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ **أي: داخلونَ في الظَّلامِ مفاجأةً**" باعتبار أن السلخ يكون سريعًا، فيسلخ هذا الأمر فإذا هم داخلون في الظلام مفاجأة، هذا كلام أبي السعود في تفسير الآية، وهو يوضح أكثر ويؤيد أيضًا ويبين ويجلي المعنى اللغوي.

ويقول الطاهر بن عاشور: "**وَالسَّلْخُ: إِزَالَةُ الْجِلْدِ عَنْ حَيَوَانِه، وَفِعْلُهُ يَتَعَدَّى إِلَى الْجِلْدِ الْمُزَالِ بِنَفْسِهِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ**" يقول ابن عاشور: "**وَالسَّلْخُ: إِزَالَةُ الْجِلْدِ عَنْ حَيَوَانِهِ**" هذا واضح، "**وَفِعْلُهُ**" أي: فعل سلخ "**يَتَعَدَّى إِلَى الْجِلْدِ الْمُزَالِ بِنَفْسِهِ**" يقول: سلخت الجلد، أو سلخ الجلد "**عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ**" بمعنى: أن الجسم الذي يزال عنه الجلد هو مفعول، "**وَفِعْلُهُ يَتَعَدَّى إِلَى الْجِلْدِ**" أي: سلخ إلى الجلد مزال بنفسه على المفعولية بمعنى: سلخ الجلد. "**وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْجِلْدِ الْمُزَالِ مِنْ جِسْمِ الْحَيَوَانِ: سِلْخٌ (بِكَسْرِ السِّينِ وَسُكُونِ اللَّامِ) بِمَعْنَى مَسْلُوخٍ، وَلَا يُقَالُ لِلْجِسْمِ الَّذِي أُزِيلَ جِلْدُهُ: سِلْخٌ. وَيَتَعَدَّى فِعْلُ سَلَخَ إِلَى الْجِسْمِ الَّذِي أُزِيلَ جِلْدُهُ بِحَرْفِ الْجَرِّ، وَالْأَكْثَرُ أَنَّهُ (مِنْ)**" أي: سلخ الجلد من الشاة "**مِنَ الِابْتِدَائِيَّةِ، وَيَتَعَدَّى بِحَرْفِ (عَنْ)**" كما تقدم على الطبري، يقول: "**وَيَتَعَدَّى بِحَرْفِ (عَنْ) أَيْضًا لِمَا فِي السَّلْخِ مِنْ مَعْنَى الْمُبَاعَدَةِ وَالْمُجَاوَزَةِ بَعْدَ الِاتِّصَالِ**".

يقول ابن عاشور: "**فَمَفْعُولُ نَسْلَخُ هُنَا هُوَ النَّهارَ بِلَا رَيْبٍ، وَعُدِّيَ السَّلْخُ إِلَى ضَمِيرِ اللَّيْلُ بـــ(مِنْ) فَصَارَ الْمَعْنَى: اللَّيْلُ آيَةٌ لَهُمْ فِي حَالِ إِزَالَةِ غِشَاءِ نُورِ النَّهَارِ عَنْهُ فَيَبْقَى عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ، فَشُبِّهَ النَّهَارُ بِجِلْدِ الشَّاةِ وَنَحْوِهَا يُغَطِّي مَا تَحْتَهُ مِنْهَا كَمَا يُغَطِّي النَّهَارُ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ فِي الصَّبَاحِ. وَشبّهَ كَشْفُ النَّهَارِ وَإِزَالَتِهِ بِسَلْخِ الْجِلْدِ عَنْ نَحْوِ الشَّاةِ فَصَارَ اللَّيْلُ بِمَنْزِلَةِ جِسْمِ الْحَيَوَانِ الْمَسْلُوخِ مِنْهُ جِلْدُهُ، وَلَيْسَ اللَّيْلُ بِمَقْصُودٍ بالتَّشْبِيهِ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَشْبِيهُ زَوَالِ النَّهَارِ عَنْهُ، فَاسْتَتْبَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّيْلَ يَبْقَى شِبْهَ الْجِسْمِ الْمَسْلُوخِ عَنْهُ جِلْدُهُ. وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الظُّلْمَةَ هِيَ الْحَالَةُ السَّابِقَةُ**" وهو كلام مقارب لما ذكره أبو السعود قبل قليل، يقول: "**ووجْهُ ذَلِكَ أَنَّ الظُّلْمَةَ هِيَ الْحَالَةُ السَّابِقَةُ لِلْعَوَالِمِ قَبْلَ خَلْقِ النُّورِ فِي الْأَجْسَامِ النَّيِّرَةِ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَةَ عَدَمٌ وَالنُّورُ وُجُودٌ، وَكَانَتِ الْمَوْجُودَاتُ فِي ظُلْمَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الْكَوَاكِبَ النَّيِّرَةَ وَيُوصِلُ نُورَهَا إِلَى الْأَجْسَامِ الَّتِي تَسْتَقْبِلُهَا كَالْأَرْضِ وَالْقَمَرِ**" انتهى كلام ابن عاشور.

هذا ما ذُكر عند مفسرين السلف ومن بعدهم في معنى السلخ، وهو كلامٌ متوافق.

ننتقل إلى ماذا قال أرباب التفسير العلمي التجريبي حول هذه الآية؟

يقولون: أنه تأكد بما لا يقبل الشك أن الكون كلَّه يعيش في ظلمة سرمدية موحشة، وهذا اكتشاف مهم جدًا ممكن أن نستفيد منه في بيان معنى الآية أو زيادة وضوح لها أو تأكيد لمعناها.

فيقول أرباب التفسير العلمي التجريبي: "**أنه تأكد بما لا يقبل الشك أن الكون كلَّه يعيش في ظلمة سرمدية موحشة**" فإذًا الظلمة كانت هي السائدة وهي كانت تغطي الكون كله وكانت موحشة. وقالوا: "**بأنه قد توصل إلى هذه الحقيقة وشاهدها بعينه رواد الفضاء عندما هيأ الله لهم أسباب الخروج عن كوكب الأرض والسباحة في الفضاء خارج نطاق الجاذبية الأرضية، وخارج ضوء الأرض المتأتي لها من الشمس، والمحيط بها وكأنه هالة من النور لا يكاد يجاوز بضع كيلومترات**" يعني: أن الشمس التي تستضيء بها الأرض، يقول: هذا الضوء الذي تستفيد به الأرض من الشمس يحيط بها، يعني شريحة أو طبقة من الضوء أو هالة من النور، سمكها لا يتجاوز بضع كيلومترات فقط تحيط بالأرض، وتحيط بالأرض ليس في كل، في نصفها وتحيط بالنصف الآخر بعدما يذهب الليل الآخر.

ويقول أرباب التفسير العلمي أيضًا: "**إن المسافة بيننا وبين الشمس هي مائة وخمسون مليون كيلومتر، وطبقة النور هذه التي تحيط بالأرض لا تتجاوز مائتين كيلو متر**" مائتين انسبها إلى مائة وخمسين مليون، فلاشك أنها تصبح هذه المائتان شريحة أو طبقة ليست بالسميكة بالنسبة إلى بُعد المسافة بين الشمس وبين الأرض.

يقولون أيضًا: "**وإن الضوء الواصل إنما هو كذلك منطلق من كوكب الشمس الذي خلقه الله بهذه الصورة العظيمة**" يقولون: "**ذلك الكوكب الملتهب ملتهب ليلاً ونهارًا، فسخره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهل الأرض من جنهم وإنسهم**" يقولون أيضًا المسافة بين الشمس والأرض أكبر بكثير من ارتفاع طبقة النور على سطح الأرض وأنه يمكن تشبيه هذه الطبقة طبقة النور، تشبه بهالة من النور تحيط بالكرة الأرضية فتبدو للرائي من على بعدٍ لها وكأنها جلدة رقيقة جدًا.

ولهذا طبقة النور هذه إذا رأيتها من بعد فكأنها جلدة رقيقة تحيط بالأرض، وكما قلت: تحيط بنصف الأرض والنصف الآخر تحيط به بعدما يذهب ليله.

وذكروا أن الجزء الذي يتكون فيه حالة النهار أو ضوء النهار هو الهواء الغلاف الغازي، يعني هذا الضوء ضوء النهار تتكون في الغلاف الغازي الذي يسمى علميًا الغلاف الغازي وهو يحيط بالأرض، فهو أيضًا هذا الضوء متكون في الغلاف الغازي.

إذًا خلاصة التفسير العلمي التجريبي لهذه الآية: أن الآية شبهت خروج النهار من الليل بانسلاخ الجلد المسلوخ، وذلك بأنه لما كانت مبادئ الصبح عند طلوعه ملتحمة بالليل، الصبح عندما يظهر وعندما يخرج يستبين يكون ملتحم بالليل، وكأنهما برزخٌ لا يبغيان، فأجرى عليهما اسم السلخ وكأن ذلك أولى من لو قيل خرج أو يخرج، لأن السلخ أدلَّ على الالتحام من الإخراج، وهذا تشبيه في غاية المناسبة، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- ينزع النهار، طبقة النهار من محيط الأرض التي تغشاها الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها -يقولون- أمام الشمس؛ فيترتب عليه الذي يقوم بسلخ هذه الطبقة الرقيقة من النور؛ ولذلك رأينا التعبير القرآني كيف عبَّر عن

حالة خروج النهار وغشيان الليل المظلم بهذه العبارة اللطيفة، مستعير لفظ السلخ بدل خروج، وهو تعبير لا يمكن أن يكون من خيال شاعر أو إيحاء ساحر، بل لا بد أن يكون ذلك التعبير البديع صادر عن عالمٍ بتلك الأحوال الكونية الخارجية تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

انتهى الحديث عن هذه الآية وعن دلالتها على أو كونها أنموذج للتفسير العلمي، وهذا ظاهر، فعرضنا تفسير السلف بذلك وقول المفسرين فيها، ثم ذكرنا أقوال أصحاب التفسير العلمي التجريبي، وليس بينهما اختلاف، بل هما متوافقان، وهذا يبين هذه الآية يجليها أكثر.

أكتفي بهذا القدر وألتقي معكم -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- في حلقة قادمة مع آية أخرى تطبيقية للتفسير العلمي التجريبي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

فموعدنا هذا اليوم مع الحلقة الثالثة عشرة من برنامج "**ابن كثير**" المستوى الثاني في مقرر "**التفسير العلمي**"، تناولنا في الحلقة الماضية أنموذج للتفسير العلمي في آيات الكون، واليوم سنتناول -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- آيةً أخرى من الآيات التي تتعلق بالكون، وهي تتعلق بآية تلوناها في حلقةٍ ماضية من ضمن مجموعة آيات في سورة "**يس**".

فاليوم حديثنا -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- عن الآية الثامنة والثلاثين من سورة "**يس**"، قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[يس:٣٨]، وتناولنا قبلها في الآية السابقة قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾[يس:٣٧]، ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

أولاً نتناول ماذا قال السلف في تفسير هذه الآية قبل أن نذكر ما الذي يقوله أرباب التفسير العلمي التجريبي حول هذه الآية. فالسلف -رَحِمَهُم اللَّهُ تَعَالَى- ذكروا تفسيرًا لهذه الآية، بل ذكروا ثلاثة أقوال:

الإمام الطبري ذكر ثلاثة أقوال في تفسيره لهذه الآية، يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: "**وَقَوْلُهُ:** ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ **يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمَوْضِعِ قَرَارِهَا، بِمَعْنَى: إِلَى مَوْضِعِ قَرَارِهَا**" أي: تجري إلى موضع قرارها، يقول: "**وَبِذَلِكَ جَاءَ الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**" فالطبري يذكر هذا المعنى ويستشهد بالأثر عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

يقول: "ذِكْرُ الرِّوَايَةِ بِذَلِكَ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: ثنا جَابِرُ بْنُ نُوحٍ، قَالَ: ثنا الْأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ بِالرُّجُوعِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَكَانِهَا، وَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا»" انتهى الحديث، وهذا الحديث ثابت أيضًا في الصحيح.

يقول: "وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ بِمَا: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَالَ: «وَقْت وَاحِد لَا تَعْدُوهُ» وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: تَجْرِي لِمَجْرًى لَهَا إِلَى مَقَادِيرِ مَوَاضِعِهَا، بِمَعْنَى: أَنَّهَا تَجْرِي إِلَى أَبْعَدِ مَنَازِلِهَا فِي الْغُرُوبِ، ثُمَّ تَرْجِعُ وَلَا تُجَاوِزُهُ. قَالُوا: وَذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ كُلَّ لَيْلَةٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أَبْعَدِ مَغَارِبِهَا ثُمَّ تَرْجِعُ" فالتفسير هذا الآخر اللي نسبه للآخرين هو يتعلق بمسألة أن الشمس كل يوم لها مغرب يختلف عن مغربها في اليوم الذي قبله، وكذلك المشارق، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[المعارج:٤٠].

والحديث الذي استدل به كلام الإمام الطبري القول الأول: كما قلت قبل قليل، قد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ذر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، يقول الإمام البخاري في صحيحه: "بَابُ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾".

يقول البخاري -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- ساق بسنده الحديث عن أبي ذرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ثم قال: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾" وهذا تفسير نبوي للآية، مادام ذكر أين تذهب ثم ذكر الآية فهذا يعتبر تفسير نبوي ثابت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للآية.

وروى هذا الحديث أيضًا مسلم في صحيحه مفصلاً، أكثر تفصيلًا من رواية البخاري: عن أبي ذرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ

تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ»أي: لا تزال كذلك في كل يوم يعني تفعل ذلك، «حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسَ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»".انتهى الحديث.

فنلاحظ أن رواية مسلم فيها تفصيل أكثر وتوضيح أكثر وأن هذا ديدن الشمس في كل يوم، لكن يأتي يوم يقال: ارجعي، بأن تخرج من مغربها وتطلع من مغربها ولا تطلع من مشرقها الذي تعودت أن تطلع منه في كل يوم.

يقول الحافظ ابن حجر تعليقا على حديث أبي ذر: "**وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِقْرَارِ وُقُوعُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَ سُجُودِهَا**" هذا كلام ابن حجر، يقول: وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾ يقول: أن الحديث يدل على "**أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِقْرَارِ وُقُوعُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَ سُجُودِهَا وَمُقَابِلُ الِاسْتِقْرَارِ الْمَسِيرُ الدَّائِمُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْجَرْيِ**" فإذًا هناك استقرار في كل يوم وليلة بناء على ما قاله ابن حجر، وهناك مسير يقابله في كل يوم وليلة، وهو الجري.

نقول: وكونها تسجد تحت العرش لا يقتضي مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض، والأوقات بالنسبة لأهل وللأرض تختلف بمقدار سيرها.

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب على مسيرها، الأمر المعروف أن تعاقب الليل والنهار واختلاف الليل والنهار يترتب عل مسيرها، فربما يقول قائل: أين

سجودها تحت العرش ومتى يكون؟ وسيرها مستمر؟ يعني: قد يسأل سائل يقول: أين سجودها تحت العرش؟ ومتى يكون وسيرها مستمر؟ وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد؟

الجواب: أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، كما أخبر به الصادق المصدوق -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهي طالعة على جانب من الأرض مع سيرها في فلكها، وهي دائمًا تحت العرش في الليل والنهار، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش، لكنها في وقتٍ من سيرها وفي مكانٍ معين يصلح سجودها الذي لا يدركه الخلق، وإنما عُلم بالوحي وهو سجود يناسبها على ظاهر النص، فإذًا نؤمن بذلك ولا نتأوله ولا نبحث عن كيفيته وهو متعذر علينا. أما التسخير، فهي لا تنفك عنه أبدًا والله أعلم. إذًا هذا الكلام ممكن يقال إجابة على من يقيس على مقاييس الدنيا أو مقاييس المشاهد، بحيث يريد أن يقيس المشاهد على ما هو غيب، فنقول: نؤمن بذلك كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو له كيفية لا نعلمها، فنؤمن بذلك، وهذا لا يتعارض مع ما جعله الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهذه الشمس من تسخير ومن حركة دءوب، فهذا لا يتعارض مع هذا.

يقول شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: **"فإذا كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار، مع كون سيرها في فلكها من جنسٍ واحد، وأن كونها تحت العرش لا يختلف في نفسه، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة، علم أن تنوع النسب والإضافات لا يقدح فيما هو ثابت في نفسه لا مختلف"**.

يعني شيخ الإسلام يقول: إن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن في الأرض، يعني الذين في الأرض قد يختلف عليهم ذلك، فهي تطلع على جانبٍ منها وتغرب عن جانب آخر، مع أن سيرها في فلكها ليس فيه هذا الاختلاف، هذا الاختلاف قد يظهر لأهل الأرض، لكن المطلع على حالها ممن هو خارج الأرض قد لا يظهر له ذلك الاختلاف، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار، لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة لمن في الأرض، هذا كله معنى كلام شيخ الإسلام، وبالإضافة إليهم، أما سجودها في مكان معينٍ

من سيرها وفي وقت معين لا يختلف، ولهذا لا يظهر هذا السؤال أو الإشكال عند أهل الأرض؛ لأنهم أصلاً غير محيطين لهذه الشمس.

يقول الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- في تفسير هذه الآية: "وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ، فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ: مُسْتَقَرُّهَا الْمَكَانِيُّ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ" أيضًا تحت العرش؛ "لِأَنَّهُ سَقْفُهَا، وَلَيْسَ بِكُرَةٍ كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْهَيْئَةِ" ابن كثير اعترض على أرباب الهيئة ممن يزعمون أن العرش عبارة عن كرة، "وَإِنَّمَا هُوَ قُبَّةٌ ذَاتُ قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ" كما نص عليه القرآن، "وَهُوَ فوق العالم مما يلي رؤوس النَّاسِ، فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّةِ الْفَلَكِ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكِهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ، وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ، صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فَحِينَئِذٍ تَسْجُدُ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الطُّلُوعِ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ".

قال ابن كثير: "وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ هُوَ انْتِهَاءُ سَيْرِهَا وَهُوَ غَايَةُ ارْتِفَاعِهَا فِي السَّمَاءِ فِي الصَّيْفِ وَهُوَ أَوْجُهَا، ثُمَّ غَايَةُ انْخِفَاضِهَا فِي الشِّتَاءِ وَهُوَ الْحَضِيضُ". وهذا أشرنا إليه قبل قليل عندما نقلنا عن الطبري تفسير الآية.

يقول ابن كثير: "وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا هُوَ: مُنْتَهَى سَيْرِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَبْطُلُ سَيْرُهَا وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا وَتُكَوَّرُ، وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ".

لا زال الكلام لابن كثير: "قَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أَيْ: لِوَقْتِهَا وَلِأَجَلٍ لَا تَعْدُوهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ: أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا الصَّيْفِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، يُرْوَى هَذَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا﴾" وهي ليست القراءة العامة، "أَيْ: لَا قَرَارَ لَهَا وَلَا سُكُونَ، بَلْ هِيَ سَائِرَةٌ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَفْتُرُ وَلَا تَقِفُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أَيْ: لَا يَفْتُرَانِ وَلَا يَقِفَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". لكن هذه القراءة لا تتفق مع التفسير النبوي للآية.

وإن كان ممكن أن يقال أنها في سيرها عمومًا تجري على هذا المعنى اللي تقول، تجري لا مستقر لها، بمعنى: أنها تستمر في حركتها إلى يوم القيامة.

وقال أيضًا الحافظ ابن كثير عن تفسير الآية (٢٩) من سورة لقمان: "﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قِيلَ: إِلَى غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ. وَقِيلَ: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ، وَيُسْتَشْهَدُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ ربَّها فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ»" يعني بمعنى أنها تشرق من المغرب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قَالَ: **"الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السَّمَاء في فلكها، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأَرْض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر"**. يقول ابن كثير عن رواية ابن أبي حاتم: **"إسناده صحيح"**.

فهنا يقول ابن عباس: **"الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السَّمَاء في فلكها، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأَرْض حتى تطلع من مشرقها"** معنى كلام ابن عباس أنها في جريان، لكن يظهر لنا في النهار ثم تغيب عنا لمن هم في الجزء المقابل الآخر من الكرة الأرضية، أيضًا هي مستمرة في جريانها.

هذا ما قاله أهل التفسير أهل السف في معنى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

أما ما قاله أرباب التفسير العلمي، فيقول الدكتور سلامة عبد الهادي –ما ملخصه–: **"كان علماء الفلك في القرن الماضي يعتقدون أن الشمس هي مركز الكون وأنها ثابتةٌ في مكانها، وأن كل شيء يتحرك حولها"** –هذا كان اعتقاد من مضى– يقول: **"فتبيَّن في العصر الحديث أن الشمس تدور حول نفسها والأرض تدول حولها، والشمس تجري وتتحرك في هذا الكون، ويجري معها أعضاء مجموعتها المرتبطة بها من الكواكب إلى أن تستقر حركتها فيستقرون معها"**.

يقول: "وأرضنا التي نعيش عليها ليست إلا كوكبًا من كواكب المجموعة الشمسية التي **تجري في ركب الشمس وتنقاد معها وفقًا لتقدير الخالق العزيز العلمي**".

يقول: "**فللشمس ميقات تستقر عنده بأمر خالقها، وسينتهي عنده كل شيء**" يقول: هذا ما أكده العلم وما تأتي به الآية من خالق الشمس على أن الشمس سوف تستقر بعد هذا الجري الدءوب، يقول: إذًا العلم يؤكد أمرًا يتوافق مع ما جاء في الآية.

وأيضًا الأستاذ الدكتور زغلول النجار يقول: "**تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الشمس في حالة جريان مستمر حتى تصل لمستقرها المقدر لها، وهذه الحقيقة القرآنية لم يصل إليها العلم الحديث إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كشف العالم الفلكي ريتشارد كارينغتون أن الشمس والكواكب التي تتبعها تدور كلها في مسارات خاصة بها وفق نظام ومعادلات خاصة**" يقول زغلول النجار: "**وهذا مصداق قوله تعالى:** ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]".

يقول: فما هو التفسير العلمي لحركة الشمس؟

"**الشمس نجم عادي يقع في الثلث الخارجي لشعاع قرص المجرّة اللبنية، وكما جاء في الموسوعة الأميركية، فهي تجري بسرعة ٢٢٠ مليون كلم في الثانية حول مركز المجرة اللبنية التي تبعد عنه ٢،٧ × ١٠ ١٧ كلم ساحبة معها الكواكب السيّارة التي تتبعها بحيث تكمل دورة كاملة حول مجرتها كل مائتين وخمسين مليون سنة.**"

يقول: "**فمنذ ولادتها التي ترجع إلى ٤,٦ مليار سنة**" -الله أعلم بذلك- "**أكملت الشمس وتوابعها ١٨ دورة حول المجرة اللبنية التي تجري بدورها نحو تجمع من المجرات، وهذا التجمع يجري نحو تجمع أكبر هو كدس المجرات، وكدس المجرات يجري نحو تجمع هو كدس المجرات العملاق، فكل جرم في الكون يجري ويدور ويسبح ونجد هذه المعاني العلمية في قوله تعالى:** ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾". هذا يعني الله أعلم، فإن ثبت فهو لا شك أن الآية تدل عليه.

يقول: "**ولكن أين هو مستقر الشمس الذي تحدث عنه القرآن الكريم في قوله تعالى:** ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾؟

إن علماء الفلك يقدّرون بأن الشمس تسبح إلى الوقت الذي ينفد فيه وقودها فتنطفئ، هذا هو المعنى العلمي الذي أعطاه العلماء لمستقر الشمس، هذا بالإضافة إلى ما تم كشفه في القرن العشرين من أن النجوم كسائر المخلوقات تنمو وتشيخ ثم تموت، فقد ذكر علماء الفلك في

وكالة الفضاء الأميركية (NASA): أن الشمس عندما تستنفد طاقتها تدخل في فئة النجوم الأقزام ثم تموت، وبموتها تضمحل إمكانية الحياة في كوكب الأرض - إلا أن موعد حدوث ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى الذي قال في كتابه المجيد: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]".

خلاصة القول: يمكن أن يقال أن التفسير العلمي يتفق مع أحد الأقوال المذكورة في تفسير الآية، وهو القول الثاني الذي ذكره الحافظ ابن كثير، حيث قال: "**وَالْقَوْلُ الثَّانِي**: **أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا هُوَ: مُنْتَهَى سَيْرِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَبْطُلُ سَيْرُهَا وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا وَتُكَوَّرُ، وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ**".

يعني هذا ما تيسر حول هذه الآية، وما قاله السلف، وما قاله أرباب التفسير العلمي، وكما ذكرت ليس بينهما تعارض، وما ذُكر من تفصيلات حول حركة الشمس ومنتهاها وأنها تقزم وأنها تنتهي، كل هذا يعني إن ثبت فهو لا شك أنه يتفق مع التفسير.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

هذه الحلقة هي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة حلقات مقرر "**التفسير العلمي برنامج ابن كثير**" المستوى الثاني، وتقدم في الحلقة السابقة والتي قبلها أنموذجان لآيتين ذكرناهما تطبيقًا للتفسير العلمي، فذكرنا أقوال السلف وأقوال المفسرين في كل آية من الآيات التي مضت، وأقوال أصحاب التفسير العلمي، وبيَّنا في الأخير الموافقة أو المخالفة.

اليوم أيضًا موعدنا مع أنموذج ثالث للآيات الكونية، وهي الآية الثالثة من الآيات التي كانت متوالية وهي في سورة "**يس**"، الآية السابعة والثلاثون ومضت، الآية الثامنة والثلاثون ومضت، وأما قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[يس:٣٨].

والثالثة وهي آيتنا اليوم: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[يس:٣٩].

فإذًا بحثنا في هذه الحلقة حول قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، وهو لا ينفصل عن الآية أو الآيتين السابقتين، فالآيات كلها الثلاث تعرض لنا آيات الله -عَزَّ وَجَلَّ- في مخلوقاته العظيمة، وهي الشمس والقمر والأرض.

فالأولى قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فبيَّن حركة الشمس في النهار، ثم في الآية الثالثة وهي آيتنا اليوم، نقلنا إلى حركة القمر في الليل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

أولاً ماذا قال السلف في تفسير هذه الآية؟ أولاً نريد أن نعرف ما قاله السلف في تفسير هذه الآية التاسعة والثلاثون من سورة "**يس**".

يقول الإمام الطبري -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- في تفسيرها: "**وَآيَةٌ لَهُمْ تَقْدِيرُنَا الْقَمَرَ**" يعني هو قال: آية لهم، لأنه قال في الآية الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾، فيقول الطبري يعني أننا نقدر هنا إضافة إلى ما سبق من الآيات، فيكون تقدير آية لهم: "**تَقْدِيرُنَا الْقَمَرَ مَنَازِلَ لِلنُّقْصَانِ بَعْدَ تَنَاهِيهِ وَتَمَامِهِ وَاسْتِوَائِهِ، حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**" فهو أيضًا ما يزال ينقص عندما يكتمل بردًا إلى أن يستوي ويتم بدرًا بعد أن يبدأ هلالًا، ثم بعد ذلك يتناقص حتى يكون كالعرجون القديم، يقول الطبري: "**وَالْعُرْجُونُ: مِنَ الْعِذْقِ مِنَ الْمَوْضِعِ النَّابِتِ فِي النَّخْلَةِ إِلَى مَوْضِعِ الشَمَارِيخِ**" فالعرجون هو العذق التي تتصل به الشماريخ التي يكون عليها البسر أو التمر.

يقول الطبري: "**وَإِنَّمَا شَبَّهَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ وَالْقَدِيمُ هُوَ الْيَابِسُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعِذْقِ، لَا يَكَادُ يُوجَدُ إِلَّا مُتَقَوِّسًا مُنْحَنِيًا إِذَا قَدِمَ وَيَبِسَ**" إذًا العذق هذا إذا يبس فإنه يتقوس وينحني فيصدق عليه أنه العرجون، أو يصدق عليه أنه يشبه الهلال عندما يقترب من الاستسرار في آخر الشهر، فإذًا هذا وصف ينطبق على العرجون القديم الذي هو العذق اليابس الذي تقوس وانحنى.

يقول الطبري: "**وَلَا يَكَادُ أَنْ يُصَابَ مُسْتَوِيًا مُعْتَدِلًا، كَأَغْصَانِ سَائِرِ الْأَشْجَارِ**" وما يمكن يكون هو هذا العذق مستويًا معتدلاً كبقية الأغصان في سائر الأشجار وفروعها، فكذلك القمر إذا كان في آخر الشهر قبل استسراره صار في انحنائه وتقوسه نظير ذلك العرجون. انتهى كلام الطبري.

نقول: فتفسير العرجون بعذق النخل اليابس أو المنحني هو من قول ابن عباس وغير واحد من السلف.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: "﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ **جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَيْرًا آخَرَ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، كَمَا قَالَ**

تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجّ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٩]" فنصت الآية على أن الأهلة وحركة هذا القمر الغرض منها هي معرفة المواقيت أو معرفة الناس للمواقيت. ومنها أيضًا الحج.

يقول ابن كثير:"**وَقَالَ تعالى**: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يُونُسَ: ٥] ، **وَقَالَ تعالى**: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾ [الْإِسْرَاء: ١٢]، **فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءٌ يَخُصُّهَا، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخُصُّهُ، وَفَاوَتَ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا، فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَيْفًا وَشِتَاءً**".

فابن كثير -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يبين حركة الشمس من أول ما تشرق إلى أن تغرب، ويبين أن لها مشارق ومغارب بناء على اختلاف الفصول، يقول ابن كثير: "**يَطُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ**" يعني بسبب اختلاف مطالع الشمس ومغاربها أو مشارقها ومغاربها "**يَطُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ، وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ، فَهِيَ كَوْكَبٌ نَهَارِيٌّ**" ولذلك لا تُرى النجوم والقمر في النهار إلا حالات قليلة.

"**وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ، فَهِيَ كَوْكَبٌ نَهَارِيٌّ وَأَمَّا الْقَمَرُ، فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً، ثُمَّ كَلَّمَا ارْتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاءً، وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنَ الشَّمْسِ**" كأن ابن كثير يقول: ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، يقول: إن كان هذا النور الذي يزداد به القمر هو أصلاً مقتبس من الشمس، يقول ابن كثير: "**حَتَّى يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ، حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**". هذا أمر مشاهد ومعروف.

يقول ابن كثير: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ "**قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ أَصْلُ العِذْق. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ: أَي الْعِذْقُ الْيَابِسُ**" يعني: ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عذق، ابن كثير يفسر كلام ابن عباس يقول: "**يَعْنِي ابْنُ عَبَّاسٍ**:

أَصْلَ الْعُنْقُودِ مِنَ الرُّطَبِ إِذَا عَتَقَ وَيَبِسَ وَانْحَنَى، وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُمَا. ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يُبْدِيهِ اللَّهُ جَدِيدًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الْآخَرِ".

لا زال الكلام لابن كثير، يقول: "وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهْرِ بِاسْمٍ بِاعْتِبَارِ الْقَمَرِ" يعني باعتبار منزلته أو منازله، يقول: "فَيُسَمُّونَ الثَّلَاثَ الْأُوَلَ (غُرَر)، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا (نُفَل)، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا (تُسع)؛ لِأَنَّ أُخْرَاهُنَّ التَّاسِعَةَ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا (عُشَر)؛ لِأَنَّ أُولَاهُنَّ الْعَاشِرَةُ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا (الْبِيض)؛ لِأَنَّ ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهِنَّ إِلَى آخِرِهِنَّ" يعني القمر يكون أكمل ما يكون وأبيض فبالتالي سميت هذه الليالي البيض، "وَاللَّوَاتِي بَعْدَهُنَّ "دُرَع" جَمْعُ دَرْعاء؛ لِأَنَّ أَوَّلَهُنَّ سُود؛ لِتَأَخُّرِ الْقَمَرِ فِي أَوَّلِهِنَّ، وَمِنْهُ الشَّاةُ الدَّرْعَاءُ وَهِيَ الَّتِي رَأْسُهَا أَسْوَدُ. وَبَعْدَهُنَّ ثَلَاثٌ (ظُلَم) ثُمَّ ثَلَاثٌ (حَنَادس)، وَثَلَاثٌ (دَآدِئُ) وَثَلَاثٌ (مَحاق)؛ لِانْمِحَاقِ الْقَمَرِ أَوَاخِرَ الشَّهْرِ فِيهِنَّ". انتهى كلام ابن كثير. فإذًا ابن كثير أطلعنا على تسميات العرب لمنازل العرب كانوا يأخذونها ثلاثًا ثلاثا.

هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية، فما الذي قاله أرباب التفسير العلمي حول هذه الآية؟

يذكر علماء الفلك أن القمر يعكس للأرض في ظلمة الليل جزء من ضوء الشمس الساقط عليه، وضوء الشمس يغمر نصف القمر باستمرار، فإذًا باستمرار نصف القمر مغمور بضوء الشمس، لكن نحن نرى هذا الضوء ثم يراه في الجانب الآخر يرون النصف الآخر.

يقول: والقمر له حركته المعقدة في الأماكن التي ينزل إليها بحيث تكون له دورة ثابتة، فتتوافق حركته حول الأرض مع حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس، بحيث تستغرق كل دورة شهرًا كاملاً، يبدأ فيه القمر بدرًا ثم يتلاشى شيئًا فشيئًا في مواقيت محددة وتتغير أشكال القمر بحسب مواضع نزول أشعة الشمس الساقطة عليه وما تحجبه الأرض عنه من هذه الأشعة.

فإذًا حجم القمر المشاهد هو يؤثر فيه أمران:

الأمر الأول: مواضع نزول أشعة الشمس الساقطة عليه، ثم أيضًا ما تحجبه الأرض عنه من هذه الأشعة.

أيضًا يقول أصحاب التفسير العلمي: بأن القمر يدور حول الأرض، في كل شهر قمري مرة واحدة، وأنه يدور حول نفسه في وقتٍ مساوٍ تمامًا لدورته حول الأرض.

إذًا القمر يدور حول الأرض في كل شهر قمري دورة واحدة، مرة واحدة، وهو في نفس الوقت يدور حول نفسه في وقتٍ مساوٍ تمامًا لدورته حول الأرض.

يقولون: لذلك لا نرى من القمر إلا وجهًا واحدًا طوال الحياة؛ لأنه يدور حول الأرض وحول نفسه في وقت واحد، ويستكمل دورته حول نفسه في تسعةٍ وعشرين يومًا وثماني ساعات، ويستكمل دورته حول الأرض في تسعةٍ وعشرين يومًا وثماني ساعات، لكن الشيء الذي يلفت النظر -يقولون-: أن القمر يقطع في كل يومٍ من دائرة سيره من فلكه حول الأرض ثلاث عشرة درجة، ويتأخر في شروقه عن اليوم السابق تسعةً وأربعين دقيقة كل يوم، ولولا هذا التأخر لبدا القمر بدرًا طوال الحياة، ولكن تأخره تسعًا وأربعين دقيقة عن شروقه السابق كل يوم هو الذي يرينا القمر في مراتب، يعني: منازل، من هلالٍ إلى ربعٍ إلى بدرٍ إلى عرجون إلى غيابٍ كامل، وبينها أيضًا منازل متعددة بين هذه المنازل المذكورة.

فما ذكره أرباب التفسير العلمي فيه نوع تفصيل لما ذكره المفسرون في معنى الآية، يعني: ما ذكروه هو ليس معارضًا لما ذكرته الآية وذكره التفسير، فهم أعطونا زيادة تفسير وتوضيح وتجلية، فإن هناك توافق، وأصحاب التفسير العلمي زادوا في ذلك دقائق وتفصيلات هي ولا شك أنها تدل على وجه من وجوه الإعجاز.

ننتقل إلى الآية الرابعة أو الأنموذج الرابع في عرضنا لنماذج تطبيقية في التفسير العلمي، فتناولنا ثلاث آيات، معنا الرابعة الآن، وهي أيضًا تكمل الآيات التي تناولناها في سورة "**يس**" وهي الآية الأربعون، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٤٠]، وسبقها قبل ذلك كما قلت

قبل قليل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٣٧-٤٠].

نبدأ أولاً بكلام السلف أو تفسير السلف في هذه الآية: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

يقول مجاهد: "**لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَعْدُوهُ وَلَا يَقْصِرُ دُونَهُ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا**" يعني: إذا جاء سلطان الشمس ذهب ضوء القمر، وإذا جاء سلطان القمر ذهب ضوء الشمس، "**وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ هَذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا**".

"**وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ:** ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ **قَالَ: ذَلِكَ لَيْلَةُ الْهِلَالِ**" وكأن الحسن يشير إلى مسألة أنه عند هلال القمر فهو دائمًا يكون بعد الشمس، فعندما تغيب الشمس يتبعها القمر في فترة وجيزة حسب منازله، أو حسب إهلاله، فبالتالي دائمًا يكون هو يغيب بعض الشمس، ولعل هذا هو مراد الحسن عندما قال: ذلك ليلة الهلال، فيقول: الشمس لا ينبغي أن تدرك القمر بمعنى أنهما يسيران سيرًا مضطردًا بحيث أنه لا يمكن أن الشمس أن تتجاوز مسيرها أو القمر يتجاوز مسيره، ودائمًا نقول مقولة أن القمر دائمًا يغيب بعد الشمس.

"**وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ:** ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ **: يَعْنِي: أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا سُلْطَانًا، فَلَا يَنْبَغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُعَ بِاللَّيْلِ. وَقَوْلُهُ:** ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾**، قَالَ الضَّحَّاكُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا حَتَّى يَجِيءَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا. وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ**".

"**وَقَالَ مُجَاهِدٌ:** ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ **يَطْلُبَانِ حَثِيثَيْنِ، يَنْسَلِخُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ**".

قال الحافظ ابن كثير: "**وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: أَنَّهُ لَا فَتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَعْقُبُ الْآخَرَ بِلَا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ؛ لِأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حَثِيثًا**". ولذلك يدل على أنهما لا يمكن أحدهما يتجاوز سيره بالتالي هما دائمًا كل واحد يطلب الآخر.

يقول الطبري: "وَقَوْلُهُ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَا الشَّمْسُ يَصْلُحُ لَهَا إِدْرَاكُ الْقَمَرِ، فَيَذْهَبُ ضَوْءُهَا بِضَوْئِهِ، فَتَكُونُ الْأَوْقَاتُ كُلُّهَا نَهَارًا لَا لَيْلَ فِيهَا، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَا اللَّيْلُ بِفَائِتِ النَّهَارَ حَتَّى تَذْهَبَ ظُلْمَتُهُ بِضِيَائِهِ، فَتَكُونُ الْأَوْقَاتُ كُلُّهَا لَيْلًا".

"وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَعْنِي: اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ، أَيْ: يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ، هذا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمة، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيّ" هذا ما قاله التفسير وهذا أمر واضح.

أما أصحاب التفسير العلمي التجريبي، فيقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار: "**الليل والنهار ظرفا زمان ولا بد لهما من مكان، والمكان الذي يظهران فيه هو الأرض**"، يقول: "**ولولا كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس لما ظهر ليل ولا نهار، ولا تبادل كل منهما نصف سطح الأرض**".

يقول: "**والدليل على ذلك: أن الآيات في هذا المعنى تأتي دومًا في صيغة الجمع** ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾" يقول: "**ولو كان المقصود سبق كل من الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية (يسبحان)**".

ومقصود الدكتور زغلول النجار: أن الأرض لم تُذكر في هذه الآية ولا التي قبلها، يقول: هي المقصودة في ذلك، بمعنى: أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال في أول الآيات: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ تكلَّم عن الليل والنهار، فالليل والنهار يتعلقان بالأرض، فمعنى كلام النجار: أن هذه الآية الأولى تشير إلى الأرض، فبالتالي يقول: ولو كان المقصود سبق كل من الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية (يسبحان)، كما أن السبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسطٍ أقل كثافةٍ منها. والسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم بحركةٍ ذاتيةٍ فيه، بمثل حركات كل من الأرض والشمس والقمر في جري كل منها في المدار المحدد لها، فسبح كل من الليل والنهار في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة ضمنية رقيقة إلى جري الأرض -هذا كلام النجار- في

مدارها حول الشمس، وإلى تكورها ودورانها حول محورها أمام الشمس. انتهى كلام زغلول النجار.

والكلام هذا لا يتعارض مع ما ذكره التفسير، لكنه يجليه ويوضحه. والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد. وموعدنا -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى- مع نماذج أخرى في حلقةٍ قادمة، أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

لازال حديثنا متواصلًا في نماذج التفسير العلمي التجريبي، وتناولنا في حلقات مضت نماذج للتفسير العلمي التجريبي يتعلق بالكون وحركة الشمس والقمر، وهذا اليوم إن شاء الله سنتناول أنموذجًا للتفسير العلمي يتعلق بالأرض من حيث سكن الناس عليها، وأيضًا من حيث خلق هذه الأرض، وأن الله ﷻ خلقها على هيئة معينة تصلح لأن تكون محلًا للمعاش.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧] نبدأ بالآية الأولى، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦] نبدأ قبل أن نذكر ما يقوله أهل التفسير العلمي التجريبي حول هذه الآية، نقول ما الذي قاله السلف أو ما يفسرونه حول هذه الآية.

جاء في تفسيرها عند الإمام الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- قال: "مهادا: تمتدونها وتفترشونها، وروى بسنده عن قتادة قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي بساطًا"، وقال الحافظ ابن كثير: "ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي ممهدةٌ للخلائق ذلولٌ لهم قارة ثابتة ساكنة". انتهى كلام ابن كثير.

وقال القرطبي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾: دَلَّهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، أَيْ قُدْرَتُنَا عَلَى إِيجَادِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَى الْإِعَادَةِ".

القرطبي يربطنا أو يبين لنا وجه علاقة هذه الآية بما قبلها، فالذي سبقها قوله ﷻ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ١ – ٥] فهم يشككون ويكفرون بالبعث، يقول: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٤ – ٧] هذا دليل على صدق ما جاء به محمد ﷺ، هذا معنى كلام القرطبي.

يقول القرطبي: "دَلَّهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، أَيْ قُدْرَتُنَا عَلَى إِيجَادِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَى الْإِعَادَةِ. وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ وَالْفِرَاشُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً﴾ [البقرة: ٢٢] وقرى " مَهْدًا". وَمَعْنَاهُ أَنَّهَا لَهُمْ كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ وَهُوَ مَا يُمَهَّدُ لَهُ فَيُنَوَّمُ عَلَيْهِ" اهـ.

هذا ما قاله أهل التفسير في معنى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾.

وأما قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ فقد قال الإمام الطبري في تفسيرها: "حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهران عن سعيد عن قتادة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي بساطًا، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ والجبال للأرض أوتادا أن تميد بكم، يعني: تميل.

وقال الحافظ ابن كثير: "﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا﴾؟ أَيْ: مُمَهَّدَةٌ لِلْخَلَائِقِ ذَلُولا لَهُمْ، قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أَيْ: جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنَتْ وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا." اهـ.

ولعل بين الآيتين تناسبًا بين قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا﴾ وبين قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، يقول الطاهر ابن عاشور: "وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ الْجِبَالِ دَعَا إِلَيْهَا ذِكْرُ الْأَرْضِ وَتَشْبِيهُهَا بِالْمِهَادِ الَّذِي يَكُونُ دَاخِلَ الْبَيْتِ فَلَمَّا كَانَ الْبَيْتُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِ السَّامِعِ مِنْ ذِكْرِ الْمِهَادِ كَانَتِ الْأَرْضُ مُشَبَّهَةً بِالْبَيْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَكْنِيَّةِ، أي: استعارة مكنية، فَشُبِّهَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ بِأَوْتَادِ الْبَيْتِ تَخْيِيلًا لِلْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا بِالْبَيْتِ وَمِهَادِهِ وَأَوْتَادِهِ". اهـ.

هذا ما جاء عند المفسرين في معنى الآيتين.

أما أرباب التفسير العلمي التجريبي فيقولون عن الآية الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ يذكرون أن كون الأرض مهادًا أو كالفراش والبساط لا ينفي كرويتها، كونها مهاد أو فراش أو بساط كما جاء في الآيات المتعددة لا ينفي كرويتها، ويستدلون على كرويتها بقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

فالمفسرون يقولون بأن التكوير مفسرٌ بمثل قوله تعالى، المفسرون يقولون أن التكوير هو الوارد هنا في آية الزمر مفسر بمثل قوله تعالى: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] يقولون: هذه بمعنى هذه، وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩].

فأخرج الطبري بسنده عن قتادة "قوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال: يَغْشَى هذا هذا، ويغشى هذا هذا".

فإذًا قتادة يفسر آية الزمر بمعنى آية الأعراف: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، وبمعنى آية لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، لكن قتادة لفظه يدل على أنه يفسرها بآية الأعراف: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾.

وأخرج الطبري أيضًا بسنده عن السدي في تفسير آية الزمر يقول: "﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال: يجيء بالنهار ويذهب بالليل، ويجيء بالليل، ويذهب بالنهار" هذا قول السدي في تفسير آية الزمر.

وأيضًا الطبري أخرج بسنده عن ابن زيد أنه قال في تفسيرها: "قوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ حين يذهب بالليل ويكور النهار عليه، ويذهب بالنهار ويكور الليل عليه".

إذًا ابن زيد يقول في معنى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يقول هذا كيف يحصل؟ يقول: حين يذهب بالليل، يعني الليل عندما يذهب، فذهابه يكون بتكوير النهار عليه، فالنهار يغطي الليل ويغشى على طريقة التكوير، كأن ابن زيد وإن كان لم يصرح بذلك يقول بأن النهار يغطي الليل على طريقة التكوير.

فإذا كان ابن زيد يعني بذلك أن الأرض تُغطَى بضوء النهار على طريقة التكوير، ولكنه لم يصرح بأن الأرض تكون كالكرة على الأقل نصفها الذي يكون ليلًا فيأتي النهار فيغطيه كما تُغطى نصف الكرة، يقول: ويذهب بالنهار ويكور الليل عليه.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: "أَيْ: سَخَّرَهُمَا يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنَ لَا يَقِرَّانِ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا" فتفسير ابن كثير هو مطابق لتفسير قتادة.

يقول: "هَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ".

وقال أبو السعود في تفسيرها: "وقولُه تعالى: ﴿يكور الليل عَلَى النهار وَيُكَوّرُ النهار على الليل﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تصرُّفِهِ تعالى فيهما بعد بيان خلقِهما فإنَّ حدوثَ اللَّيلِ والنَّهارِ في الأرض منوطٌ بتحريك السَّمواتِ أي يغشى كلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ كأنَّه يلفه عليه لفَّ اللباسِ على اللاَّبسِ أو يُغيبه به كما يُغيَّبُ الملفوفُ باللفامة أو يجعله كارًّا عليه كُروراً متتابعاً تتابع أكوارِ العمامةِ وصيغةُ المضارع للدِّلالةِ على التَّجدُّدِ".

يقول يكور بصيغة المضارع يدل استمرار الأمر وتجدده وتكراره.

وقال الطاهر ابن عاشور: "وَالتَّكْوِيرُ حَقِيقَتُهُ: اللَّفُّ وَاللَّيُّ، يُقَالُ: كَوَّرَ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ إِذَا لَوَاهَا وَلَفَّهَا، وَمُثِّلَتْ بِهِ هُنَا هَيْئَةُ غَشَيَانِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ فِي جُزْءٍ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ وَعَكْسُ ذَلِكَ عَلَى التَّعَاقُبِ بِهَيْئَةِ كَوْرِ الْعِمَامَةِ، إِذْ تَغْشَى اللِّيَّةُ اللِّيَّةَ الَّتِي قَبْلَهَا" يقول: كطريقة تكوير العمامة أن اللية تغشى اللية التي قبلها.

يقول: "وَهُوَ تَمْثِيلٌ بَدِيعٌ قَابِلٌ لِلتَّجْزِئَةِ بِأَنْ تُشَبَّهَ الْأَرْضُ بِالرَّأْسِ، وَيُشَبَّهَ تَعَاوُرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" يعني تكرر الليل والنهار، "عَلَيْهَا بِلَفِّ طَيَّاتِ الْعِمَامَةِ، وَمِمَّا يَزِيدُهُ إِبْدَاعًا إِيثَارُ مَادَّةِ التَّكْوِيرِ الَّذِي هُوَ مُعْجِزَةٌ عِلْمِيَّةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا فِي الْمُقَدِّمَةِ الرَّابِعَةِ

وَالْمُوَضَّحَةِ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ، فَإِنَّ مَادَّةَ التَّكْوِيرِ جَائِيَةٌ مِنِ اسْمِ الْكُرَةِ، وَهِيَ الْجِسْمُ الْمُسْتَدِيرُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ عَلَى التَّسَاوِي، وَالْأَرْضُ كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ فِي الْوَاقِعِ وَذَلِكَ كَانَ يَجْهَلُهُ الْعَرَبُ وَجُمْهُورُ الْبَشَرِ يَوْمَئِذٍ فَأَوْمَأَ الْقُرْآنُ إِلَيْهِ بِوَصْفِ الْعَرَضَيْنِ اللَّذَيْنِ يَعْتَرِيَانِ الْأَرْضَ عَلَى التَّعَاقُبِ وَهُمَا النُّورُ وَالظُّلْمَةُ، أَوِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، إِذْ جَعَلَ تَعَاوُرَهُمَا تَكْوِيرًا لِأَنَّ عَرَضَ الْكُرَةِ يَكُونُ كُرَوِيًّا تَبَعًا لِذَاتِهَا، فَلَمَّا كَانَ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ الْحَقِّ بِإِنْشَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اخْتِيرَ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى مَا يَتْبَعُ ذَلِكَ الْإِنْشَاءَ مِنْ خَلْقِ الْعَرَضَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ لِلْأَرْضِ مَادَّةِ التَّكْوِيرِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ نَحْوِ الْغَشَيَانِ الَّذِي عُبِّرَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [٥٤]؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ مَسُوقَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سَعَةِ التَّصَرُّفِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ لِأَنَّ أَوَّلَهَا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤] فَكَانَ تَصْوِيرُ ذَلِكَ بِإِغْشَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى قُوَّةِ التَّمَكُّنِ مِنْ تَغْيِيرِهِ أَعْرَاضَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ عَلَى تَغْيِيرِ أَعْظَمِ عَرَضٍ وَهُوَ النُّورُ بِتَسْلِيطِ الظُّلْمَةِ عَلَيْهِ، لِتَكُونَ هَاتِهِ الْآيَةُ لِمَنْ يَأْتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى عِلْمِ الْهَيْئَةِ فَتَكُونُ مُعْجِزَةً عِنْدَهُمْ". اهـ.

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

فيذكر أرباب العلم التجريبي أنه ثبت في العصر الحديث أن للجبال جذورًا عميقةً في الأرض، وأن ما يكون مخفيًا في داخل الأرض هو معظم الجبل، فهو الوتد الذي يضرب بالخيمة أكثره فيكون أكثره مغروزًا في الأرض.

على هذا يكون التفسير هذا يتفق مع قول المفسرين ويزيد في إيضاحه، يعني إذا قلنا: إن المعنى هو أن هذه الأرض أن هذه الجبال هي كالأوتاد لتثبيت الأرض، وأن معظم الجبل يكون مغروزًا في داخل الأرض، نقول: هذا لا يتنافى مع قوله ﷻ بوصفها: أوتاد.

لكن يشكل في هذا المقام آية أخرى تناولت الجبال كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقى فِى الْأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النَّحْل: ١٥] فعبر عن تثبيت الأرض بالإلقاء وليس بأوتاد، لكن

أصحاب التفسير العلمي يجيبون عن هذا بأن الإلقاء المذكور في الآية قد كان، ولكنه من أسفل الأرض إلى أعلاها بفعل البراكين، فلفظت الأرض ما بداخلها إلى السطح فتكونت الجبال.

بيد أن ما ورد عن السلف في تفسير الآية مختلف عما يقوله أرباب التفسير العلمي، يقول الحافظ ابن كثير في قوله ﷻ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾: "وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ، جَعَلَتْ تَمُورُ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا هَذِهِ بِمُقِرَّةٍ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدًا، فَأَصْبَحَتْ صُبْحًا وَفِيهَا رَوَاسِيهَا".

وقال الطبري: "حدثني المثنى، قال: ثنا الحجاج بن المنهال، قال: ثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن عليّ بن أبي طالب، قال: لما خلق الله الأرض قمصت، وقالت: أي ربّ أتجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث، قال: فأرسى الله عليها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان قرارها كاللحم يترجرج".

يعني هذا ما ذكره ابن جرير في هذه الآية.

فإذًا نقول أن تفسير الإشكال الذي ورد أن هذه الجبال دلت هذه الأخبار وهذه الآثار على أن الله ﷻ يخلق لها الجبال ويلقيها عليها بحيث تكون راسخةً وثابتةً وراسية وتثبت الأرض، فظاهر اللفظ ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ مع ما جاء في الآثار وتفسيرها يدل على أنها تُلقى عليها الجبال لتثبيتها.

لكن قد يقال أنه ورد في القرآن تسميتها بالأوتاد، فبالتالي كونها أوتادًا تثبت الأرض، فلا يمنع أنها تلقى عليها الجبال، ثم هذا الإلقاء لا ندري كيفيته ونؤمن به فيكون هذا الإلقاء يترتب عليه أن تنغرس جزء ليس بالقليل من هذه الجبل الملقاة على الأرض تنغرس في عمق الأرض وتكون قاعدة هذه الجبال، ومعظمها داخل الأرض لتثبيتها وترسيتها حتى تكون ذلولًا مسخرةً لعباد الله تعالى.

أيضًا ليس بينهما تعارض، هذا الذي يظهر والله أعلم، لكن ما قالوه في أنه تفسير الأوتاد، ما قاله أصحاب التفسير العلمي التجريبي من أن إلقاء المذكور هذا بأن يكون من

أسفل الأرض إلى أعلاها بفعل البراكين هذا لا يقضي أن يكون إلقاءً، ولا يظهر فيه الإلقاء، والآثار الواردة لا تدل عليه، فالله أعلم بصحته.

لكنه يكفي أن نقول أن الله جعل الجبال أوتاد لهذه الأرض تثبتها وتسكنها، وتكرر في القرآن كلمة: ﴿أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، وبين العلة في الآية قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ هذا ظاهر في ذلك، وكونه سماها أيضًا أوتادًا، تدل على أن الأوتاد في لغة العرب أنها الوتد الذي يكون للخيمة وينغرس فيها.

فبالتالي لا مانع أن نقول أن هذه الأوتاد أو هذه الجبال جزء منها ليس بالقليل يكون في عمق الأرض وهو أيضًا يظهر منه ما يكون على سطح الأرض، ويكون أيضًا ما ظهر دون ما هو في أعماق الأرض.

فإذًا ليس بينهما تعارض، لكن ما ذكروه من تفسير حول أن ذلك يكون خروج البراكين ويكون هو تفسير للإلقاء، هذا أمرٌ لا يمكن الجزم به، ولا يدل عليه ظاهر اللفظ، بل والآثار التي جاءت في تفسير الآية تدل على خلاف ذلك.

فبالتالي نقول أنه يُكتفى بأن نقول بأن الآيات قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧] ظاهرة، والتفسير العلمي يمكن أيضًا يبينها ويجليها ويقويها، وأما ﴿أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ فنأخذها على ظاهرها، وكما جاءت عن السلف، ولا نقول إن الإلقاء يُفسَّر بخروج البراكين ونحو ذلك، وإن وقع ذلك، فلا نستطيع أن نفسر به كل ما وقع عن الجبال، هذا غيبٌ لا نستطيع الجزم به.

إذًا هذا ما يتعلق بهذه الآية، وهي قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧] هذا ما يتعلق بهذا الأمر.

عندنا آية أخرى أو نموذج آخر أيضًا يتعلق بالمطر، لكن الوقت ربما لا يسعفنا للاستعراض، لكن نذكره لكم لنبدأ – إِنْ شَاءَ اللهُ– به نتحدث في الحلقة القادمة وهي قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠] هذه

الآية جاءت في سورة الفرقان، سنتحدث عنها - إِنْ شَاءَ اللهُ- في حلقة قادمة، ونتبين ماذا قال السلف في معناها، وماذا قال أصحاب التفسير العلمي التجريبي حولها.

هذا ما تيسر، وأستودعكم الله، وألقاكم على خير في حلقة قادمة - إِنْ شَاءَ اللهُ- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فهذا موعدنا مع المحاضرة السادسة عشرة من برنامج ابن كثير- م٢ في مقرر التفسير العلمي، انتهينا في الحديث في الحلقة الماضية عند أنموذج من نماذج التفسير العلمي المتعلق بالآفاق سواء في موضوع الكون، أو ما يتعلق بموضوع الأرض، ولازال حديثنا في هذا الأمر.

وقد ذكرت في محاضرة مضت أننا سنتناول - إِنْ شَاءَ اللهُ- في هذا اليوم أو في هذه الحلقة أنموذج جديد أيضًا يتعلق بدورة المياه العذبة التي تنزل على الأرض، والتي تتبخر من البحار.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠].

هذه الآية نريد أن نقف عند تفسير السلف لهذه الآية، ثم بعد ذلك نذكر ما قاله أرباب العلم التجريبي حول هذه الآية.

الراجح أولًا من أقوال المفسرين أن الهاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ عائدٌ إلى المطر المذكور في الآيتين قبلها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

قال صاحب أضواء البيان: "التَّحْقِيقُ: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ، رَاجِعٌ إِلَى مَاءِ الْمَطَرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ الْمَذْكُورَ

رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَصَدَّرَ بِهِ الْقُرْطُبِيُّ، وَصَدَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ".

المسألة الثانية: بناء على ما ترجح فما معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ إذا قلنا بأن المراد به المطر، فما المراد بالتصريف هنا إذا قلنا أن الضمير يعود إلى المطر؟

أخرج الإمام الطبري بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "قَالَ: مَا عَامٌ بِأَكْثَرَ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُصَرِّفُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾".

كما أخرج أيضًا الطبري بسنده عن أبي جحيفة يقول: "سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: " لَيْسَ عَامٌ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّهُ يُصَرِّفُهُ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾".

وذكر البغوي أيضًا في تفسيره أن: "حديث ابن مسعود روي مرفوعًا بلفظ: «لَيْسَ مِنْ سَنَةٍ بِأَمْطَرَ مِنْ أُخْرَى وَلَكِنَّ اللَّهَ قَسَّمَ هَذِهِ الْأَرْزَاقَ فَجَعَلَهَا فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي هَذَا الْقَطْرِ يَنْزِلُ مِنْهُ كُلَّ سَنَةٍ بِكَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، وَإِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَإِذَا عَصَوْا جَمِيعًا صَرَّفَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى الْفَيَافِي وَالْبِحَارِ»".

الألباني في السلسلة الصحيحة يقول: "فيظهر مما تقدم أن الحديث وإن كان موقوفًا فهو في حكم المرفوع؛ ولأنه لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد؛ ولأنه روي مرفوعًا والله أعلم". اهـ على الحديث الذي قال عنه البغوي رواه ابن مسعود مرفوعًا.

يؤيد أيضًا هذه الآية آية الحجر وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

الإمام الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- يقول في تفسيرها: "وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَمْطَارِ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ، لِكُلِّ أَرْضٍ مَعْلُومٌ عِنْدَنَا حَدُّهُ وَمَبْلَغُهُ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، وروى بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: " مَا مِنْ أَرْضٍ أَمْطَرُ مِنْ أَرْضٍ، وَلَكِنَّ

اللَّهَ يُقَدِّرُهُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١) وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١- ٢٢]".

وروى أيضًا بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾".

وأيضًا روى بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: " مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقْسِمُهُ حَيْثُ شَاءَ، عَامًا هَهُنَا وَعَامًا هَهُنَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١) وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾".

وأيضًا أخرج بسنده عن ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١) وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ قَالَ: "الْمَطَرُ خَاصَّةً".

وروى أيضًا عَنِ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ قَالَ: "مَا مِنْ عَامٍ بِأَكْثَرَ مَطَرًا مِنْ عَامٍ وَلَا أَقَلَّ، وَلَكِنَّهُ يُمْطَرُ قَوْمٌ وَيُحْرَمُ آخَرُونَ، وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْبَحْرِ قَالَ: وَبَلَغَنَا أَنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ الْمَطَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ وَلَدِ إِبْلِيسَ وَوَلَدِ آدَمَ يُحْصُونَ كُلَّ قَطْرَةٍ حَيْثُ تَقَعُ، وَمَا تُنْبِتُ". اهـ الحكم بن عتيبة.

هذا ما قاله المفسرون من السلف في معنى آية الفرقان، وكذلك الآية التي تؤيدها وهي آية الحجر، وخلاصتها أن تفسير السلف يدل على أن المطر الذي ينزل في كل عام على الأرض القدر واحد، ولكن الله ﷻ يصرفه إلى من يشاء من عباده أو يصرفه عمن يشاء من عباده.

أما أصحاب التفسير العلمي التجريبي فيقولون ما خلاصته أنه أيضًا موافق لما ذُكر في التفسير، يقول أيضًا أنه ثبت بعد دراسات مستفيضة لتقدير كمية الماء على سطح الأرض أنها كمية هائلة إذ تقدر بحوالي ألف وثلاثمائة وستون مليون كيلو متر مكعب.

هذه الكمية الهائلة التي تكون على سطح الأرض، أغلبها طبعًا ما يقارب ٨٠٪ هو مياه مالحة في البحار والمحيطات، أما تجمعت الكمية الباقية على هيئة المياه العذبة بأشكالها

الثلاثة: الصلب والسائل والغازي، وبعضها يكون تراكمات جليدية كما تقدم فوق المنطقتين القطبيتين من الأرض، وأيضًا على قمم الجبال والماء أيضًا يكون على سطح الأرض، وأيضًا يختزن في الطبقات المسامية للصخور القشرية على هيئة ماء تحت سطح الأرض.

أيضًا هناك مياه البحيرات العذبة هذه على سطح الأرض، وأيضًا هناك مياه مختزنة على هيئة رطوبة تكون في تربة الأرض، وهناك أيضًا البخار الذي يكون في الغلاف الغازي للأرض، أيضًا هذا أيضًا مما يُحسب على المياه العذبة، ثم أيضًا المياه الجارية في الأنهار والأودية ونحوها.

الماء يغطي بالنسبة لسطح الأرض، يغطي ما يقارب الـ ٧١٪ من سطح الأرض، وهي مساحة كبيرة جدًا تقدر بـ ٥١٠ مليون كم٢ أي أن مساحة المسطحات المائية فوق الأرض تقدر بحوالي ٦١ مليون كم٢ أما اليابسة فتقدر بحوالي ١٤٩ مليون كم٢، إذًا على هذا نقول معدل البخر من أسطح البحار والمحيطات يقدر بحوالي ٣٢٠ ألف كم٣ يتبخر من أسطح البحار والمحيطات كل عام.

بينما يقدر معدل البخر من اليابسة حوالي ٦٠ ألف كم٣، وإذا جمعنا هذين الرقمين اتضح أن دورة المياه بين الأرض وغلافها الغازي تبلغ حوالي ٣٨٠ ألف كم٣ في السنة، وأغلب هذه الكمية يتبخر من المناطق الاستوائية، حيث يصل متوسط درجة الحرارة السنوي إلى ما يقارب الـ ٢٥ درجة مئوية.

وعندما يتبخر الماء من أسطح كل من البحار والمحيطات واليابسة والأرض الرطبة، فإنها يرتفع بفعل قلة كثافته هذا الذي يتبخر ترتفع بدافع التيارات الهوائية له إلى المنطقة الأسفل من الغلاف الغازي للأرض، اللي يسمونه التغيرات المناخية، وهو يتميز بتبرد كلما ارتفع حتى تصل درجة حرارته إلى -٨٠ درجة مئوية فوق خط الاستواء.

وفي هذا النطاق البارد يتتج بخار الماء الصاعد للأرض ويعود إليه بإذن الله ﷻ مطرًا أو ثلجًا أو بردًا أو طلًا، أو نحو ذلك.

والماء في عودته للأرض يصفه الله تعالى بحكمة بالغة، حيث ينزل على اليابسة قدر أعلى مما يتبخر من أسطحها المقدر بـ ٩٦ ألف كم٢ مقابل ٦٠ ألف كم٢ مجموع ما يتبخر منها، بينما ينزل على البحار والمحيطات قدرًا أقل مما يتبخر من أسطحها، وهو يقدل بـ ٢٨٤ ألف كم٣ في مقابل ١٢٠ ألف كم٣ يتبخر منها.

والفرق بين هذين الرقمين هو نفس الفارق بين المطر والبخر على اليابسة ويقدر بحوالي ٣٦ ألف كم٣ من الماء، ويفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات في كل عام.

ودورة الماء حول الأرض دورةٌ تدل على وحدانية الله ﷻ وكمال قدرته ﷻ وعظيم صنعه، وإحكامه لخلقه، فكميتها لمجموعها ثابتة ومحسوبة بما يكفي متطلبات الحياة على الأرض، والدورة ذاتها التي هي بين البخر والمطر تعمل على تنقية مياه الأرض التي يحيا ويموت فيها بلايين الأفراد من صور الحياة المختلفة.

وأيضًا تعمل على حفظ التوازن الحراري على سطح الأرض وعلى التقليل من شدة حرارة الشمس في الصيف، فيعمل على تقليل الفرق بين درجة الحرارة صيفًا وشتاءً؛ وذلك لصون الحياة الأرضية بمختلف أشكالها.

ولما كان مجموع ما يتبخر من الماء في الأرض إلى غلافها الغازي ثابتًا كل عام، ومجموع ما يحمل هذا الغلاف الغازي من بخار الماء ثابت أيضًا كذلك على مدار السنة، فإن مجموع ما ينزل من مطر إلى الأرض يبقى ثابتًا في كل سنة، وإن تباينت كميات سقوطه من مكان لآخر حسب مشيئة الله تعالى.

ويبلغ متوسط سقوط المطر على سطح الأرض معدل ٨٥,٧ سم٣ في السنة، تتراوح كميته بين الصفر في المناطق الصحراوية الجافة القاحلة، و ١١,٤٥ م٣ في السنة في جزر الهاواي.

يعني هذا تقريبًا ملخص ما ذكره أهل التجريب العلمي في هذا الشأن، هناك الأستاذ/ عبد الدائم الكحيل، وهذا أيضًا ممن يُعنى بالتفسير العلمي يقول: "منذ القديم يحاول الإنسان معرفة أسباب نزول المطر وأين تذهب الأمطار، بقيت الأساطير تُنسج حول هذه

العملية حتى جاء عصر العلوم الحديثة، يعني هذا العصر ليكشف أسرار تصريف الأمطار على الكرة الأرضية".

يقول: "فقد تبين أن الغيوم الموجودة في السماء هي ذرات مياه تبخرت من البحار وصعدت إلى طبقات الجو الباردة حيث تكثفت وتحولت إلى غيوم. عن معدل درجات الحرارة على سطح الكرة الأرضية ثابت تقريباً" يقول أن هذا البخار الصاعد إلى طبقات الجو الباردة يتكثف ويتحول إلى غيوم عن معدل درجات الحرارة على سطح الكرة الأرضية ثابت تقريبًا.

"ويتغير بمعدلات طفيفة جداً وهذا يؤدي إلى ثبات كمية المياه المتبخرة كل عام وبالتالي ثبات كمية الأمطار الهاطلة أيضاً ويخبرنا علماء الأرصاد بأن كمية المياه على سطح الكرة الأرضية أكثر من ١٣٠٠ مليون كيلومتراً مكعباً". وكما تقدم في الحديث قبل قليل هي أرقام قريبة مما تقدم.

الخلاصة: أننا نقول أن كمية الأمطار التي تنزل على الأض في كل سنة هي ثابتة، لكن تختلف مواقعها من سنة لأخرى.

وأيضًا الطاهر ابن عاشور يقول في التعليق على هذه الآية: "فَحَصَلَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمِقْدَارَ الَّذِي تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَطَرِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ لَا تَخْتَلِفُ كِمِّيَّتُهُ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ تَوْزِيعُهُ. وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ قَرَّرَهَا عُلَمَاءُ حَوَادِثِ الْجَوِّ فِي الْقَرْنِ الْحَاضِرِ، فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ" اهـ.

هذا تقريبًا ما يتعلق بهذه الآية، وتلاحظون أن هناك توافق بين ما ذكره مفسرو السلف حول الآية وبين ما قال أرباب التفسير العلمي، يعني أن آراء التفسير العلمي أكدوا المعنى الذي ذكره السلف ووضحوه وفصلوا فيه من خلال الأرقام التي توصل إليها العلماء في هذا الشأن.

عندنا أيضًا أنموذج آخر يتعلق بالنبات، نموذج للتفسير العلمي يتعلق بالنبات، وهو عند قوله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

السلف -عليهم رحمة الله- فسروا الآية، ابن عباس يقول: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي معلوم، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة، هذه قولهم أنهم قالوا: موزون أي معلوم، ومنهم من يقول: موزون أي مقدر بقدر، القول الأول: معلوم، هذا مقدر بقدر.

وقال ابن زيد: من كل شيء يوزَن ويقدر بقدر، والبغوي جمع بين القولين فقال: فسر قوله: ﴿موزون﴾ بأنه مقدر معلوم، فجمع بين أنه موزون أي مقدر وموزون أيضًا معلوم، فالوصفين كلاهما يقول أو يرى البغوي أنها تصلح أن تكون تفسيرًا للموزون.

أما أصحاب التفسير التجريب العلمي، فعبد الدائم الكحيل يقول: "تستهلك النباتات لصنع نمائها وغذائها غاز الكربون، تحتاج إلى غاز الكربون لصنع غذائها هذه النباتات، تأخذه من الهواء وتجري في داخلها عملية تسمى بالتركيب الضوئي، تركب من خلال المادة الخضراء التي يركب منها النبات الحب الثمار".

يقول: "ونتيجة هذه العملية يطلق النبات" يعني خلال امتصاصه للكربون، وأيضًا "يطلق الأكسجين" وهذا أيضًا معلوم عند غالب الناس معروف هذا أن النبات يطلق الأكسجين ويأخذ الكربون غاز الكربون.

يقول: "الأكسجين الذي يستفيد منه الإنسان في عملية التنفس، والعجيب أن كمية النباتات على وجه الأرض مناسبة لحجم الغلاف الجوي، هناك توازن يشير إلى ما على وجه الأرض من غابات وأشجار مختلفة سواء كانت ما تنبت طبيعيًا أو تنبت، فالإنسان كلها في النهاية نقول أنها توازن بين كمية هذه النباتات وهي مناسبة لحجم الغلاف الجوي".

يقول: "هناك توازن بين ما يأخذه الإنسان وبين ما يطلقه النبات من الأكسجين، وتوازن آخر بين ما يطلقه الإنسان من غاز الكربون وبين ما يأخذه النبات من هذا الغاز، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وهذا يدل على أن هناك ميزانًا في نسبة النباتات على الأرض ونسبة ما تمتصه من كربون ونسبة ما تطلقه من أكسجين".

يقول: "وهذه النسبة قاسها العلماء حديثًا، فعلى سبيل المثال فإن نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي هي ٢١٪ تقريبًا، ولو زادت هذه النسبة لاحترقت الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه النسبة قليلًا لماتت الكائنات اختناقًا، أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي هي أقل من ١٪، ولو زادت هذه النسبة لتسمم البشر وماتوا جميعًا، ولو نقصت لماتت النباتات وتوقفت الحياة".

يقول: "لذلك هناك توازن دقيق بين هذه النباتات وهذا ما تحدث عنه القرآن".

الخلاصة والنتيجة التي يمكن أن نصل إليها: أن هناك توافقًا بين ما قاله السلف في تفسير الآية، وبين ما قاله أصحاب العلم التجريبي فتفسيرهم يزيد في إيضاح ما ذكره السلف ويقويه، تفسير العلم التجريبي الذي ذكرناه حول هذه الآية، هو في الحقيقة يوضح ويفصل ما ذكرناه في هذا الأمر، وهو مسألة التوازن أو القدر المعلوم الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] يفصله ويوضحه.

والأرقام التي ذكرناها وهذا التناسب العجيب بين النبات وبين الإنسان في حاجاته هذا مما يقوي ويوسع المدارك حول هذه الآية، هذا الأنموذج الثاني يمكن أن يكون مثالًا لهذا الأمر.

سننتقل - إِنْ شَاءَ اللهُ- للحديث عن نماذج تتعلق بخلق الإنسان، فما تقدم كله نماذج تتعلق بالآيات الآفاقية متعلقة بالكون والحياة والأرض والنبات والمطر والبحار ونحوها، أما حلقتنا القادمة - إِنْ شَاءَ اللهُ- ستكون حول نماذج من التفسير العلمي يتعلق بالنفس الإنسانية، ولاسيما في أطوار خلق الإنسان، وأيضًا مسألة تشتهر وهي مسألة البنان وكيف خلق الله هذا البنان.

أستودعكم الله، وألقاكم على خير - إِنْ شَاءَ اللهُ- في المحاضرة القادمة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

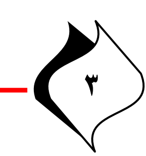
أيها الأحباب، هذه المحاضرة السابعة عشرة التي نتناول فيها التفسير العلمي التجريبي من خلال برنامج ابن كثير المستوى الثاني، وحديثنا في الحلقات الماضية كان عن نماذج من التفسير العلمي في مجال الكون والحياة عمومًا في الآفاق الآيات الآفاقية، وهي تتعلق بالكون وتتعلق بالأرض والبحار والمطر ودورة المطر ونحو ذلك، وهذه تناولناها في الحلقات الماضية من خلال خمس حلقات.

اليوم معنا - إِنْ شَاءَ اللهُ- سنتناول الحديث أيضًا عن التفسير العلمي والتجريبي نماذج منه تتعلق بالنفس الإنسانية، والأنموذج المهم الذي سنتناوله اليوم هو ما يكثر الحديث عنه، وهو من أهم ما ينبغي أن يُطرق هنا لكثرة الأيدي التي تناولته؛ ولأن العلم توصل فيه إلى نتائج تستحق الوقوف والنظر، وهي مسألة أطوار خلق الإنسان.

يقول الله ﷻ في هذا الأمر في هذا الشأن في سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ماذا قال السلف في تفسير هؤلاء الآيات؟

الحافظ ابن كثير يقول في تفسير هذه الآيات: "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ صَلْصَالٍ من حمإٍ مسنون، وقال ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قَالَ: من صَفْوَةُ الْمَاءِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ سُلَالَةٍ



أَيْ من مني بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتُلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ، وَهَذَا أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى وَأَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق مِّن طِينٍ لأَّزِبٍ، وهو الصلصال الْحَمَأِ الْمَسْنُونِ، وَذَلِكَ مَخْلُوقٌ مِنَ التُّرَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ".

ولاشك على أن قوله ثم يدل على أن هناك نقلة بين خلق الإنسان من تراب وخلق البشر؛ لأن البشر صار خلقهم من المني، وهذا آدم خلق من تراب، وذريته خلقوا من المني الذي يمنى كما جاء في آية أخرى، المقصود أن ثم تدل على أن هناك اختلاف في الخلق بالنسبة لآدم وبالنسبة لذريته، من حيث أن هؤلاء من المني وآدم خُلق من تراب.

ويقول الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك**» يعني بين هذه الألوان «**والخبيث والطيب وبين ذلك**» ما كان بين الخبيث والطيب.

يقول ابن كثير: "وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ عَوْفٍ الْأَعْرَابِيِّ، بِهِ نَحْوَهُ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ."

ثم يقول: "﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ : هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [السَّجْدَةِ: ٧، ٨] أَيْ: ضَعِيفٍ، كَمَا قَالَ: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾، يَعْنِي: الرحمُ مُعَد لِذَلِكَ مُهَيَّأٌ لَهُ، ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [الْمُرْسَلَاتِ: ٢٢، ٢٣] ، أَيْ: إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَأَجَلٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى اسْتَحْكَمَ وتَنَقَّل مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَصِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ " يعني في سورة المؤمنين قال: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾.

"أَيْ: ثُمَّ صَيَّرنا النُّطْفَةَ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ -وَهُوَ ظَهْرُهُ- وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ-وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَى الثَّنْدُوَةِ-فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً. قَالَ عِكْرِمَةُ: وَهِيَ دَمٌ".

يلاحظ أن ابن كثير أنه يرى أو يرجح أن الماء الدافق يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها، ولكن الأرجح في تفسير آية الطارق ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧] أنه يخرج من بين صلب الرجل وترائب الرجل، وهذا هو الراجح، فهو يخرج من الرجل هذا الماء الدافق ما بين صلبه وترائبه اللي هي موضع القلادة كما يقولون أي في الصدر.

يقول ابن كثير: "﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وَهِيَ قِطْعَةٌ كالبَضعة مِنَ اللَّحْمِ، لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يَعْنِي: شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرُوقِهَا".

يقول ابن كثير: "وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ عَظْمُ الصُّلْبِ. وَفِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ».

يقول ابن كثير: "﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُقَوِّيهِ، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أَيْ: ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ، فَتَحَرَّكَ وَصَارَ ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكٍ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾".

يقول: "وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُسافر، حَدَّثنا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ -يَعْنِي: ابْنَ كَثِيرٍ، مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ-حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِذَا أَتَمَّتِ النُّطْفَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، بُعِث إِلَيْهَا

مَلك فَنَفَخ فِيهَا الرُّوحَ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يَعْنِي: نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ".

يقول ابن كثير: "وَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ نَفْخُ الرُّوحِ." أيضًا نفس المعنى.

يقول ابن كثير: "قَالَ ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني بِهِ: الرُّوحَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وابنُ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ ابنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يَعْنِي: نَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا ثُمَّ نَشَأَ صَغِيرًا، ثُمَّ احْتَلَمَ، ثُمَّ صَارَ شَابًّا، ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا، ثُمَّ هَرِمًا".

فإذًا هذا التفسير عن ابن عباس يدخل فيه جميع المراحل التي يمر بها الإنسان منذ أن ينفخ فيه الروح إلى يشيخ ويهرم.

يقول ابن كثير: "وَعَنْ قَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكِ نَحْوُ ذَلِكَ". نحو هذا المعنى الذي قاله ابن عباس، "وَلَا مُنَافَاةَ، فَإِنَّهُ مِنَ ابْتِدَاءِ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ شَرَعَ فِي هَذِهِ التَّنَقُّلَاتِ وَالْأَحْوَالِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ".اهـ.

يعني تفسير ابن عباس الذي وافق عليه قتادة والضحاك يقول: ما فيه منافاة بينه وبين ما تقدم؛ لأنه منذ أن يُنفخ فيه الروح فإنه تصبح هذه المراحل أو الأحوال أو التنقلات التي يمر بها الإنسان هي موافقة لما تقدم، والله أعلم.

ثم ذكر أيضًا الحافظ ابن كثير وهذا أمر مهم، ذكر حديث ابن مسعود الذي رواه الإمام أحمد وهو أيضًا في الصحيحين، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ- قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجمع خَلقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ

الْكِتَابُ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

أيضًا ذكر الحافظ ابن كثير حديث حذيفة بن أسيد وهو في نفس الباب هذا في نفس الموضوع الذي رواه الإمام أحمد، وهو عند مسلم في صحيحه يقول: عن حُذَيْفَة بْنِ أُسَيْد الْغِفَارِيِّ قَالَ: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَدْخُلُ المَلك عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَاذَا؟ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ، فَيَكْتُبَانِ. فَيَقُولَانِ: مَاذَا؟ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَكْتُبَانِ ويُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَمُصِيبَتُهُ، وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَةُ، فَلَا يُزاد عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ**». انتهى حديث حذيفة الذي عند مسلم، وهو أيضًا رواه الإمام أحمد.

هذا الحديث الاختلاف فيه هو أنه ذكر فيه أنه يدخل الملك على النطفة، وفي الحديث السابق حديث ابن مسعود الملك بعد أن تكون مضغة يرسل إلى الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بالكلمات، فالأمر بالكلمات بعد النفخ بالروح، وفي حديث أسيد يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقي أم سعيد؟ إلى آخره، فإذًا الملك يعلم بحال صاحب هذه النطفة بعد أربعين يومًا بإخبار الله ﷻ عن حاله من حيث الشقاء والسعادة، ومن حيث رزقه وعمله ومصيبته إلى آخره.

هذا طبعًا الحديث أيضا ربما يكون هو الذي سوف يهمنا الحديث الآخر حديث أسيد سيهمنا عندما نتحدث عن ماذا قال أرباب التفسير العلمي حول هذه الآيات.

المقصود هنا أن ابن كثير ذكر أقوال كثيرة في تفسير الآيات وهي واضحة، وذكر بعد ذلك الحديث وهو أيضًا يفسر هذه الآية ويفصل فيها، وإن كان الروايات قد تختلف ولكن شراح الحديث جمعوا بين هذه الاختلافات، باعتبار أنها قد تكون أحوال في كل ملك، والله أعلم.

أما أصحاب التفسير العلمي والتجريبي، فماذا يقولون حول هذه الآية؟

قبل الدخول فيما قالوا حول آيات سورة المؤمنون، يحسن أن نذكر جملة موجزة عن أهم ما ذكر أبواب التفسير العلمي فيما يتعلق في مراحل تطور خلق الجنين، ومدى تطابقها مع المعطيات العلمية الحديثة.

يقول الدكتور/ محمد بن إبراهيم الدودح، هذا باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة يقول ما ملخصه: "ليس غرض القرآن أن يعطي المخاطب درسًا في علم الأجنة على نحو المقررات الدراسية اليوم، وإنما يمد بصره" يعني القرآن عندما يتكلم عن مثل هذه الأحوال التي يكون عليها الإنسان في خلقه، يقول: "في نظرة أوسع من آفاق المألوف تعيده إلى البداية، حيث لم يكن شيئا لتقوده إلى اليقين بقدرة الله".

يقول: "يقول العلي القدير: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] وفي ثنايا العرض ترد في عفوية جملة من الحقائق التي لم يكن يعلم بها أحد زمن التنزيل، يقول العلي القدير: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١، ٢] فلم يكن يعلم أحد بتكون الجنين من بويضة مخصبة تماثل. نطفة. أي قطرة ماء غاية في الضآلة، ذات أخلاط" يقول هذه القطرة القليلة الصغيرة المهينة ذات أخلاط، "تحتوي على مكونات وراثية من الأبوين، نسميها اليوم كروموزومات".

ويقول: ويكفيك أن تعرف أن الإدراك بتكون الجنين من أخلاط من الجنسين، أي أمشاج، لم يتحقق إلا بعد عقود من اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وأول من استخدم عدسة بسيطة في دراسة أجنة الدجاج هو هارفي عام ١٦٥١م ولصعوبة معاينة المراحل الأولى استنتج أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية، وفي عام ١٦٧٢، اكتشف جراف حويصلات المبايض وعاين حجيرات في أرحام الأرانب الحوامل تماثلها".

يقول: "فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم، وإنما من المبايض" التي تنتج البيض الذي يكون سببًا في لقائه مع الحيوان المنوي، ثم يحصل منه الولد.

يقول: "ولم تكن تلك التكوينات الدقيقة التي عاينها جراف سوى تجاويف في كتل الخلايا الجنينية الأولية ,وفي عام ١٦٧٥م عاين مالبيجي أجنة في بيض الدجاج، واعتقد بأنه يحتوى على كائن مصغر ينمو في الحجم فحسب، ولا يتخلق في أطوار، وباستخدام مجهر أكثر تطورا اكتشف هام وليفنهوك الحوين المنوي عام ١٦٧٧م، وظنا أيضا أنه يحتوي على الإنسان مصغرا".

يقول: "وفي عام ١٨٢٧م عاين فون بير البويضة، وأخيرا انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل، وتأكدت أهمية كل من الحوينات المنوية والبويضة، واستقرت حقيقة التخلق في أطوار بعد ما كانت مجهولة، وفي عام ١٨٧٨م اكتشف فليمنج الكروموزومات، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائيا من احتواء البويضة المخصبة على تلك الأخلاط الوراثية، التي أشار إليها قوله ﷻ: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ والتخلق من الذكر والأنثى".

يقول: "الدليل على هذا الأمر أن الإنسان مخلوق من ذكر وأنثى قول العلي القدير: ﴿يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال القرطبي: بيَّنَ الله – تعالى– في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى".

ويقول: "وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ﴿يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ﴾؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل انتهى كلام القرطبي".

إذًا الكلام الذي يبدأ من قوله: بين الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من ذكر وأنثى وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل.

مازال الكلام للدودح يقول: "وفي قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾؛ سبقت وظيفة السمع في مقام بيان أطوار التخليق وظيفة البصر"، الذين تتبعوا خلق الإنسان في الرحم يجدون يلحظون أن تخليق السمع يكون قبل البصر.

يقول: "ووظيفة السمع خلال تكون الجنين تسبق بالفعل وظيفة البصر، حيث تبدأ العمل ابتداء من الشهر الخامس بينما يتأخر البصر، فهل هي مصادفة أن يتفق النظم مع الواقع، أم هو الإحكام في البيان والبينة على التنزيل؟ وهكذا كلما غصت أكثر نحو الأغوار، كان رصيدك أكثر من دلائل الإحكام في البيان الموافق الحقيقة من كل وجه".

يقول: "ولصعوبة الرؤية في المجاهر الأولية رسم داليمباتيوس الإنسان كاملاً داخل رأس الحوين المنوي عام ١٦٩٩م، أي قبل بداية القرن ١٨ بعام واحد فقط، بدون إدراك لتخلق الجنين من الأبوين في أطوار، بينما يعلن القرآن الكريم -بجلاء- منذ القرن السابع الميلادي بتخلق الجنين في أطوار، يقول العلي القدير: ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾؟ [نوح: ١٣-١٤]".

"ويقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ (١٩) ثُمّ السّبِيلَ يَسّرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٠]، ولكن العجيب أن تتخفى الحقائق في ثنايا العرض فلا يكاد يلمحها إلا العالمون، فبعد تكون البويضة الملقحة مباشرة يتكون البرنامج الوراثي، وتقدر بالفعل سمات الجنين بالفعل في وقت مبكر جدًا".

يقول: "ويرجع القرآن بالإنسان إلى أصول أولية للبويضة المخصبة نحو السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف، وأصول جيولوجية أبعد كالطين، ليدرك أن معرفة الله وعبادته هي القصد من كل تكوين، يقول العلي القدير: ﴿الّذِىَ أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مّآءٍ مّهِينٍ﴾ [السجدة: من ٧-٨].

يقول: "وندرك اليوم أهمية المني في الإنجاب، ونعرف أن نخبة أو سلالة هي التي تنجح بالفعل في بلوغ البويضة، ويرجع القرآن بالإنسان إلى أصل ضئيل في مرأى العين، ويمضي به نحو قاع الضآلة، ثم ينقله فجأة إلى وليد مكتمل القسمات ليشهد بالقدرة المفزعة" يستدل بذلك على قدرة الله ﷻ.

يقول: "يقول العلي القدير: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]، وفي قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩]؛ يشير إلى الإبهام بضآلة الأصل، أصل الإنسان، ويضاعف الإعراض قدر الجريمة" أو ويكون الإعراض وهو جريمة ولا شك عن الله ﷻ.

يقول: "ويجعل المتهم شاهد عيان يعرف بنفسه الحكم" مع هذه الدلائل القوية يكون إدانةً له.

يقول: "ولا يقوم بالإخصاب إلا مكون منوي واحد" لاشك في هذا حيوان منوي واحد هو الذي يقوم بالإخصاب، "من السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف (حوالي ٦٠ مليون\ ميلليليتر)، يقول العلي القدير: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٦-٣٧].

يقول: "والمدهش أن يعدل القرآن في وصف مكونات المني المماثل للماء إلى اسم الفاعل "دافق" بدلا من اسم المفعول قبل أن نعاين بالمجهر حركته الذاتية، يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦]."

يقول: "ويحتوي الحوين المنوي على نصف عدد الكروموزومات، وتحتوي البويضة على النصف المكمل، والحوينات إما أن تكون ذات شارة تأنيث؛ لوجود كروموزوم الجنس فيها على هيئة (Y) أو تكون ذات شارة تأنيث لوجوده على هيئة (X) بينما لا تملك البويضة إلا شارة تأنيث، ولذا يرجع تحديد جنس الجنين إلى المني فحسب، وهو ما تطالعه في قوله

تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ(٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩]".

يقول: ويبين القرآن بالتفصيل تباين أطوار تكون الجنين في تعبيرات وصفية بالغة الإحكام، يقول العلي القدير: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ١٢-١٤]."

هذه الآية التي ذكرنا قبل قليل تفسير السلف لها، والآن سنتناولها الآن بنوع من البيان من حيث ما قال أرباب التفسير العلمي، هذا ما سيكون - إِنْ شَاءَ اللهُ- موضوع الحلقة القادمة، أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً أما بعد:-

فهذه هي الحلقة الثامنة عشرة من حلقات "مقرر التفسير العلمي التجريبي" لبرنامج ابن كثير المستوى الثاني. وكانت الحلقات التي مضت تناولنا فيها جملة من النماذج التي يمكن أن تكون تمثل التفسير العلمي التجريبي وكانت معظمها في التفسير العلمي التجريبي أو الآيات التي تتعلق بالكون وبالأرض وبالمياه ونحو ذلك وبحركة يعني المياه بين الأرض والسماء.

وتناولنا أيضاً في حلقة ماضية أطوار خلق الجنين ماذا قال عنه القُرآن وماذا قال عنه مفسرو السلف، وماذا قال عنه التجريبيون، وتناولنا آيات من سورة المؤمنون، وهي قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وذكرنا في المحاضرة التي مضت ما يقوله أرباب التفسير العلمي حول ما يتعلق بخلق الجنين وأطواره وأن الكشوفات الأخيرة دلت على معاني ذكرها القُرآن وفسرتها السُنة ما كانت معلومةً لدى أصحاب العصور أو يعني ما كانت معلومة فقط إلا في هذا العصر، عصر الاكتشافات العلمية وعصر المجاهر التي صورت الجنين في بطن أُمه.

الشيخ الطبيب أحمد حطيبة يعلق على آيات سورة المؤمنون فيقول:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، يقول: فقد كانت النطفة في صلب الرجلِ واستقرت في رحم المرأة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ [المؤمنون: ١٤] من جزءٍ واحد من ملايين الحيوانات المنوية.

وهذا كما تقدم في المحاضرة الماضية، يعني هي الرجل يتدفق منه، أو الماء الدافق منه يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية ولا يدخل في البويضة إلا فقط إلا حيوانٌ منويٌ واحد.

يقول: هذا الحيوان المنوي هو الذي ينجح في أن يصل إلى البويضة فيلقحها.

يقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠] فلا يصل شيء من الحيوانات المنوية الدافقة من الرجل إلى بويضة المرأة. والمرأة تفرز بويضةً واحدة في كل شهر، وأما الرجل ففي دفقةٍ من دفقات المني تخرج منه ملايين الحيوانات المنوية، التي قد تلقح البويضة وقد لا تلقحها. يقول: والذي يلقح البويضة هو حيوان منوي واحد كما قلنا قبل قليل ثم يحدث التخليق والانقسام، يعني تكون عبارة عن خلية واحدة ثم تنقسم وبانقسامها تكبر.

يقول: كل واحدة تنقسم إلى اثنين حتى يكون في النهاية جنيناً في بطن أُمه.

يقول: يقول تعالى، الكلام لازال لحطيبة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، يقول: وهذا الترتيب ترتيبٌ سريع ولذلك أتى بالفاء، يعني يقصد بالسريع واللهُ أعلم يعني متوالي، يعني هذه المراحل، مرحلة النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام كلها يعني عطف بينها بالفاء، يقول: مما يدل على أنها مراحل متوالية.

يقول: لأنه أتى بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب مباشرة. يقول: ففي خلال اثنين وأربعين يوماً يتكون الجنين في بطن الأُم ويتخلق في خلال هذه المدة. ثم يبعث الله.

وهذا الكلام هذا يوافق الحديث حديث حذيفة ابن أُسيد الرواية الأُخرى التي عند مسلم في خلق الجنين والتي ذكر فيها أن الملك يعني يتلقى من الله ﷻ شقاوة ذلك الجنين أو سعادته ويتلقى يعني رزقه ومصيبته ونحو ذلك التي تقدمت في محاضرةٍ مضت.

فالمقصود أن هذا يوافقه، باعتبار أنه التخليق يكونُ في اليوم الثاني والأربعين، وهناك قال: عندما تكونُ علقة، بعد ما تكون علقة يبدأ التخليق.

يقول حطيبة: ويتخلق في خلال هذه المدة ثم يبعث الله إليه ملك يصور سمعه وبصره ويصور جنسه ذكر أو أُنثى، ويكتب عليه شقيٌ أو سعيد، ويكتب ما يكون عليه هذا الإنسان في هذه الدنيا من عمل، ويكتب رزقه ومصيره. يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]. يقول: وهذه التصويرات الدقيقة العجيبة من نطفةٍ واحدةٍ في القرار المكين فإن الرحم يقول: عندما تدخل النطفة فيه فإنها تنقسمُ وتتحول إلى علقة كشكل الدودة وتتعلق في جدار الرحم وتستقر فيه، ثم تتحول هذه العلقة إلى مضغة فتصبح وكأنها قطعةٌ من اللحم الممضوغ بالأسنان والتي تكون فيه علامات الأسنان فتكونُ على هذه الهيئة ويكون طولها وهي في بطن الأم مضغة حوالي عشرة سنتيمترات.

يقول حطيبة: قال تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي فخلق اللهُ هذه القطعة الصغيرة مضغة: عظاماً.

قال تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، ينقل الشيخ حطيبة عن الشيخ الزنداني أنه سأل بعض علماء المسلمين أيهما يتكون أولاً: العظام أم اللحم؟ قال: كان جوابه سريعاً المسئول: قال اللحم.

يقول: فرجعنا. يقول الزنداني، رجعنا إلى القرآن فإذا هو يقول: إن العظام تخلق أولاً. قال تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، فراجع الأمرَ ثم قال: إنه أخطأ في كلامه، هذا المسئول هذا العالم الذي هو عالم من علماء الأجنة يقول: راجع الأمر ثم قال: إنه أخطأ في كلامه فإن العظم يتكون أولاً ثم بعد ذلك اللحم، فصار ما توصل إليه العلماء في ذلك يكونُ موافقاً يعني لما ذكر اللهُ ﷻ وهو الأصل في ذلك.

قال: وسألتُ بعض العلماء الأجانب في ذلك. يقول الزنداني: فكان جواب الجميع: أن العظم يتكون أولاً وبعده اللحم.

يقول حطيبة: قال اللهُ تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي خرج من مرحلة التخليق إلى مرحلة التصوير

السمعي والبصر والجنس فخرج خلقاً آخر وهو هذا الإنسان العجيب يعني بعد ما تنفخ فيه الروح، كما تقدم أن المراد بالخلق الآخر هو نفخ الروح فيه كما تقدم عند تفسير من تفاسير السلف.

أيضاً يقول: محمد راتب النابلسي، ممن هم معنيين بالتفسير العلمي التجريبي، محمد راتب النابلسي يقول معلقاً على الآية، يقول ما ملخصه: فمن العلقة إلى المضغة عطفٌ بالفاء، وكذلك من المضغة إلى العظام، ومن العظام إلى اللحم. أما من النطفة إلى العلقة فقد جاء العطفُ بثم. والفاءات بعدها متلاحقة. مع العلم أن ثم حرف عطف للترتيب على التراخي، أما الفاء فهو حرف عطف للترتيب والتعقيب.

يقول: إن أحدث ما في علم الجنين أو علم الأجنة أن هناك فترة زمنية بين مرحلة النطفةِ ومرحلة العلقة، هذه الفترة تزيدُ على أسبوعين حيث يتباطأ فيها نمو الجنين لأن هذه المرحلة مرحلة انغراز النطفة في جدار الرحم، والجنين في هذه المرحلة لا ينمو ولكنه يوطدُ طرائق امتصاصه للغذاء من الرحم.

يقول: ولا يكون في هذه المرحلة إلا كقرصٍ من الخلايا المنتظمة، يقول النابلسي: فهذا البطء في مرحلة نمو الجنين في الأسبوع الثاني والثالث من اللقاح عبر الله عنه بحرف ثم، أما من العلقةِ إلى المضغة فقال ﷻ ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] ، أما من المضغة إلى العظام فقال ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

في مرحلة واحدة قال تعالى، يقول النابلسي: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]، يقول: فجاء القرآن كلام الخالق معبر عن هذه الحقيقة العلمية بحرف ثم، فهي تفسر هذا البطء في النمو في المرحلة الأولى لأنها مرحلة توطيد لامتصاص الغذاء من الرحم.

يقول النابلسي أيضاً: والقرار المكين هو الرحم، وسُميَ قراراً لأنه يفرزُ مادةً لاصقة إذا جاءت البيضةُ الملقحة إلى الرحم التصقت في جداره، فهو قرارٌ لها وليس ممراً، ثم إن في

الرحمِ عدداً من الأوعية الدموية يفوقُ حد التصور، كلها تمدُ هذه البيضة الملحقة بالدمِ ليتغذى الجنين ولينموا في سُرعةٍ تعدُ أسرع ما في جسم الإنسان من نسيجٍ في تكاثره وانقسامه.

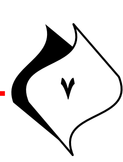
أيضاً يقول شيءٌ آخر: يقول هذا الجنين غشاءٌ رقيق، وقد بدأ هذا في الصور التي أُخذت من الجنين، يقول: وهو مغلفٌ بغشاء رقيق وهذا الغشاء الرقيق معلقٌ في أعلى الرحم فهو لا يتأثرُ بجدار الرحم، وفوق هذا وذاك فقد أحيط هذا الجنين بسائلٍ يتمصُ كل الصدمات. والأغرب يقول من هذا أن الرحم كله معلقٌ في حوض المرأة بأربطةٍ إلى أقطار الحوض، فالرحمُ سائب، والجنينُ سائب، وبين الرحم والجنين سائلٌ يمتصُ كل الصدمات كلُ هذا البيان والشرح ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣].

يقول أيضاً النابلسي: يقول بعض علماء العظام: إن عظام الحوض في المرأة هي أقصى عظام في النوع البشري وهذا من أجلِ رد الصدمات.

أيضاً يقول النابلسي عن علم الأجنة الحديث، يقول: وهو علمٌ تكون الجنين في رحم الأُم، يقول: قد تقدم هذا العلم في السنوات الأخيرة تقدماً كبيرة حتى أصبح بإمكان الأطباء والعلماء أن يصوروا الجنين وهو في الرحم في مراحل نموه وتطوره فهناك صورٌ للجنين في الأسبوع الثالث وصورة في الأسبوع الرابع وصورة في الأسبوع الخامس وصورة في الأسبوع السادس، ويعنينا من كل هذه الصورة، صورةٌ للجنين في رحم الأم في بداية الأسبوع السادس يقول: فماذا نلحظ في هذا وماذا نرى؟

يقول: نرى الآن مختلطاً بالفم متصلاً بالعين نرى اليد كأنها مجداف قصير، نرى الرأس ملتصقاً بالجذع، هذه صورة الجنين في بداية الأسبوع السادس.

يقول: فإذا انتهى هذا الأسبوع، ابتعد الرأسُ عن الجزع وتوضحت معالمُ العينين ومعالمُ الأنف ومعالمُ الفم وملامح اليدين والرجلين، هذه الملامح هي ملامح نهاية الأسبوع السادس ويكون الجنين قد اكتملَ أو أكملَ عندها اثنين وأربعينَ يوماً.



يقول: وهذا موافق لحديث حديث ابن أسيدة الذي ساقه الحافظ بن كثير في تفسير آية المؤمنون وتلوناه عليكم وذكرته لكم في محاضرةٍ قد مضت. هذا ما قاله النابلسي ونختم به الحديث عن تلك الآيات التي في سورة المؤمنون، وهي تحكي لنا أحوال أو كيف خلق الإنسان، أو أطوار خلق الإنسان في بطن أُمة، وكيف أن العلم بعد أن تطور وبعد أن تمكن من تصوير هذا الجنين في بطن أُمه كيف أن هذه الأحوال التي هو عليها هي موافقة ومطابقة لما قال السلف في تفسير الآيات بل ما قاله الرسول ﷺ في تفسيره أو في بيانه بأطوار خلق الجنين.

عندنا أيضاً مثال آخر ونموذج آخر للتفسير العلمي التجريبي يتعلق أيضاً بالإنسان لكنه بعضو من أعضائه، "**البصمة**" وهي أمرٌ مشتهر، بصمة الإبهام، يقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣، ٤].

➢ **نريد أولاً أن نقف عند ماذا قال السلف في تفسيرهم لهذه الآية.**

▪ يقول ابن قتيبة: هذا ردٌ من الله عليهم وذلك أنهم ظنوا أن الله لا ينشر الموتى ولا يقدرُ على جمع العظام البالية، فقال بلى فاعلموا أنا نقدرُ على رد السُلاميات على صغرها ونؤلفُ بينها حتى يستوي البنان، ومن قدرَ على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر.

يقول ابن قتيبة أيضاً: ومثلُ هذا رجلٌ قلتُ له: أتراك تقدرُ على أن تؤلف هذا الحنظل في خيط؟ يعني تنظمه في خيط؟ الحنظل معروف وهو نبت الحنظل الذي يوجد في البراري. يقول: أتراك تقدر على أن تؤلف هذا الحنظل في خيط؟ يعني تنظمه في خيطِ؟ فيقول لك نعم، وبين الخردل، يعني يقول: أنظمه بل أنظمُ الخردل، وهي الحبات الصغيرة جداً التي يمكن أن ينظمها في خيط وهي أمرٌ عسير. لكن ما دام قال لك أنظم الخردل معناته أنه يدل على أنه قادر.

هذا ما قاله ابن قتيبة في تفسير هذه الآية.

▪ أما الطبري فنقل لنا تفسير السلف لذلك وهو قول، وهو ما ذهب إليه جمهور السلف في هذا المعنى وهو تفسيرٌ يعني على خلاف ما ذكره ابن قتيبة.

الإمام الطبري يقول: قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة: ٣] يقول تعالى ذكره: يظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها، بلى قادرين على أعظم من ذلك ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، وهي أصابعُ يديه ورجليه فنجعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار، فكان لا يأخذُ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، وكنه فرق أصابع يديه يأخذُ بها ويتناول ويقبض إذا شاء فحسُنَ خلقه.

وبنحوه يقول ذلك، يقول نقله التويب، ثم نقل بسنده عن سعيد بن جبير، يقول قال لي ابن عباس: سل.

فقلتُ: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة: ٣، ٤]؟

قال: لو شاء لجعله خفاً أو حافراً. أي لو شاء لجعل يد الإنسان خفاً أو حافراً.

أيضاً أو روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس عن طريق محمد بن سعد: حدثنا عمي عن أبي عن ابن عباس يقول: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قال: أنا قادرٌ على أن أجعل كفه مجمرة مثل خف البعير.

وأيضاً يقول ابن الطبري راوي بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قال: نجعله خفاً أو حافراً.

وأيضاً روى عن عكرمة أنه قال: على أن نجعله مثل خف البعير أو كحافر الحمار.

أيضاً الطبري روى عن الحسن: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قال: جعلها يداً وجعلها أصابع يقبضهن ويبسطهن، ولو شاء لجمعهن فاتقيت الأرض بفيك، ولكن سواك خلقاً حسناً.

قال أبو رجاء: وسُئل عكرمة فقال: لو شاء لجعلها كخف البعير.

وأيضاً روى الطبري بسنده عن مجاهد: قوله: ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، رجليه كخف البعير فلا يعملُ بهما شيئاً.

وأيضاً أخرج بسنده عن قتادة يقول: ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قادرٌ واللهِ على أن يجعلَ بنانه كحافر الدابة أو كخف البعير، ولو شاء لجعله كذلك فإنما ينقي طعامه بفيه.

فأيضاً الطبري أخرج بسنده عن قتادة في قوله: ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قال: لو شاء لجعله، جعل بنانه مثل خف البعير أو حافر الدابة.

وأيضاً أخرج عن الضحاك أنه قال في قوله: ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، قال البنان الأصابع. يقول: نحن قادرون على أن نجعل بنانه مثل خف البعير.

هذه هي أقوال السلف نقلها الطبري وكلهم اتفقوا على أن المراد هو: أن الله ﷻ يمتنُ على الإنسان أن لم يجعل يده مثل خف البعير قطعةً واحدة لا يستطيع أن يُمسك بها، بل جعلها أصابع ينتفع بها نفعاً عظيماً.

هذا من خلال الاستعراض هو أقوال السلف في ذلك ولم يختلفوا في هذا الأمر، فإذاً هم جمهور السلف عامتهم على هذا القول.

ابن قتيبة اختلف في هذا الأمر. الزجاج وهو من المفسرين تفسير لغوياً صاحب الكتاب "معاني القرآن وإعرابه" يقول: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣]، المعنى: بلى لنجمعنكم، قادرين. المعنى: أقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة لنجمعنها، قادرين على أن نسوي بنانه.

يقول: وجاء في التفسير: بلى نقدرُ على أن نجعله كخف البعير، والذي هو أشكل، يعني الآن هو يقول عند المفسرين أنه نجعله كخف البعير. يقول: والذي هو أشكل، يعني والذي هو أقرب أو أشبه بجمع العظام: بلى نجمعها قادرين على تسوية بنانه على ما كانت، وإن قل عظامها وصغرت وبلغ منها البلى.

إذاً هذا كلام الزجاج، يقول: إن الموافق لقوله يعني تعجب الكافر من إعادة العظام وخلقها مرة أُخرى؟ الذي يوافقه يقول: أن يكون هو إعادة البنان كما كان، فيكون معناها: هو موافقٌ لما قاله ابن قتيبة.

البغوي يقول: مجازُ الآية: بلى نقدرُ على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك. وهو على أن نسوي بنانه أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار فلا يرتفقُ بها في القبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطةِ وغيرها. هذا قول أكثر المفسرين.

البغوي يقول: وقال الزجاج وابن قتيبة: معناه: ظن الكافرُ أنا لا نقدرُ على جمع عظامه، بلى نقدر على أن نُعيد السلاميات على صغرها فنؤلفُ بينها حتى نسوي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظامِ فهو على جمع كبارِها أقدر. انتهى كلام البغوي.

وقال الحافظُ بن كثير: قال سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس: نجعله خفاً أو حافراً.

وكذا قال أيضاً مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وابن جرير، ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدُنيا.

يقول ابن كثير: والظاهر من الآية أن قوله: قادرين حالٌ من قوله: نجمع. أي أيظنُ الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي قدرتنا صالحةٌ لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعلُ بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج. انتهى كلام ابن كثير.

إذاً هو يوافقُ الزجاج وابن كثير على ما ذهبا إليه.

ابن القيم أيضاً يوافقهم عليه، يقول ابن القيم: قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٣ - ٤] أي نجعله كخف البعير. قيل هذه. أيضاً فيها قولان: أحدهما هذا أي أنه كخف البعير، وهو الثاني وهو الأرجح. أي تسوية بنانه إعادتها كما كانت بعدما فرقها البلى في التراب.

يقول ابن حيان أيضاً: ﴿نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٤] وهي الأصابع أكثر العظام تفرقاً وأدقها أجزاءً وهي العظام التي في الأنامل ومفاصله، هذا عند البعث.

وقال ابن عباس والجمهور: المعنى نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كخف البعير لا تفرق فيه. أي في الدنيا، فتقل منفعته بها.

وهذا قول، يقول أبو حيان: يقول فيه توعد، والمعنى الأول هو الظاهر والمقصود من رصف الكلام، يعني يؤيد كلام أيضاً ابن قتيبة.

ويقول السعدي: ثم أخبر مع هذا أن بعض المعاندين يُكذب بيوم القيامة فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَه﴾ [القيامة: ٣] بعد الموت كما قال في الآية الأُخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨] فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عمادُ البدن، فرد عليه تعالى بقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٤] أي أطراف أصابعه وعظامه المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن لأن إذا وجدت الأنامل والبنان فقد تمت خلقة الجسد. انتهى.

➢ أخيراً ستتكلم فقط أن أرباب التفسير العلمي ماذا قالوا عن هذه الآية؟

مصطفى مسلم يقول: قد أثارت الإشارة في الآيات الكريم انتباه المفسرين ودهشتهم حيثُ أقسم تعالى بيوم القيامة وبالنفس الباقية على فطرتها التي تلوم صاحبها على كل معصية وتقصير في الطاعة، أقسم بهما على شيءٍ عظيم يعتبر الركن الثاني من أركان العقيدة ألا وهو: بعث الإنسان بعد موته وجمع عظامه للحساب والجزاء.

وبعد القسم على ذلك بين الله ﷻ أن ذلك غير مستحيل لأن من كان قادراً على تسوية بنان الإنسان يقدرُ على جمع عظامه وإعادة الحياة إليها.

يقول: والشيء المستغرب لأول وهلة في هذا الاستدلال هو أن القدرة على تسوية البنان والبنان جزءٌ صغير من تكوين الإنسان، لا يدل بالضرورة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن القدرة على خلق جزء لا يستلزم بالضرورة القدرة على باقي الجسم كله.

يقول: وعلى الرغم من محاولات المفسرين إلقاء الضوء على البنان وإبراز جانب الحكمة والإبداع في تكوين رءوس الأصابع من عظامٍ دقيقةٍ وتركيب الأظافر فيها ووجود الأعصاب الحساسة وغير ذلك، إلا أن الإشارة الدقيقة أدركت أو أُدركت فيما بعد في القرن التاسع عشر الميلادي عندما اكتشف علماء الطب أن الخطوط الدقيقة الصغيرة الموجودة على البشرة في رءوس الأصابع تختلفُ من شخصٍ لآخر وأن هذه الخطوط تكون على ثلاثة أنواع: أقواس أو عراوي أو دومات. بمعنى دوائر متحدة المركز.

يقول: هناك نوعٌ رابع يختلف عن الأنواع المذكورة ويطلق عليه المركبات لأنها مركبة من أشكال متعددة.

يقول: وهذه الخطوط تظهرُ في جلد الجنين وهو في بطن أُمه عندما يكون عمره بين مائة إلى مائة وعشرين يوماً وتتكامل تماماً عند مولده ولا تتغير مدى الحياة، ومهما عرض له من إصابات وحروق وأمراض، كما أنه لا تتطابق تمام التطابق من شخص إلى آخر بل لابد من فوارقٍ تميز أحدهما عن الآخر.

لذا لقد قال الأطباء هذا الاكتشاف العجيب على وجوه، ووجدت الدراسات العميقة حولها وعلى أعدادٍ كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات والأعمار، ثم وقفوا أمام الحقيقة عاريةً ليحنوا الرؤوس للقادر تبارك وتعالى الذي سوى البنان وفي سنة ألف ثمانمائة أربعة وثمانين استعملت البصمات في جنت راء رسمياً كوسيلة للتعرف على شخصية الشخص المراد، ولا تزال البصمات أمضى سلاحٍ يشهر في وجه الجريمة إلى يومنا هذا.

ويقول: تبرز عظمة الخالق تبارك وتعالى في تشكيل هذه الخطوط على مسافةٍ ضيقة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات مربعة، فلا تشابه بين بنان اثنين من ألوف الملايين من البشر، ولو أعطي إنسانٌ مساحةً بمقدار قعر الكف مثلاً وطلب منه أن يرسم لوحاتٍ كثيرة لا تتشابه في خطوطها وتقسيماتها، إن هذا الإنسان مهما كان واسع العقل ومهما بلغت حيلته في هذا الشأن يمكن أن يرسم ألف أو عدة آلاف من النسخ تتباين أشكالها وتقسيماتها ومن ثم

تنتهي إمكانياته وتأتي أشكال بعد ذلك متماثلة مع بعض سبق رسمه. أما خلق الله وإبداعه فلا يعجزه شيءٌ في ذلك.

يقول: هذا ما توصل إليه العلم وهو أيضاً موافق للآية.

هذا ما تيسر، وأستودعكم الله في محاضرةٍ قادمة بإذن الله ﷻ. ونكون بهذا قد انتهينا من النماذج المتعلقة بالتفسير العلمي التجريبي سواءً في الآفاق أو في الأنفس، وإن شاء الله ننتقل في محاضرةٍ قادمة إلى مسألةٍ أُخرى من مسائل التفسير العلمي التجريبي.

أستودعكم الله الذي لا تضيعُ ودائعه. وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فهذه الحلقة التاسعة عشرة من حلقات برنامج ابن كثير المشروع الثاني لمقرر التفسير العلمي، وهذه المحاضرة والتي تليها بإذن الله ستكون دراسةً تطبيقية لآياتٍ من سورة النمل لاستبانة معالم منهج القُرْآن في تناول الآيات الآفاقية والنفسية.

وهذه الآيات هي تبدأ من قوله ﷻ قل الحمد لله قال تعالى:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٦].

وموضوع هذه الآيات هو أدلة إلوهية -اللهِ تَعَالَى- وأدلة البعث، هذا المقطع له مناسبة بما قبله له علاقة بما قبله، وهذه العلاقة هي أنه لما استوفى غرض الاعتبار وإنذار حقه بالنظر في عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل.

فهذه السورة قد بدأت بقصص قصة موسى - عَلَيْهِ السَّلَام-، ثم قصة سليمان مفتتحةً بذكر داود - عَلَيْهِ السَّلَام-؛ ثم قصة ثمود مع نبيهم صالح - عَلَيْهِ السَّلَام-، ثم قصة لوط أَيْضًا بإيجاز، ثم بعد ذلك جاءت هذه الآيات.

فلما استوفى غرض الاعتبار وإنذار حقه بالنظر في عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل والتي سبقت هذه الآيات: أمْر الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم، وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم أي الرسل من النصر ورفع الدرجات.

وعلى أن أهلك الأعداء الظالمين كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، الآية الخامسة والأربعين من سورة الأنعام كما أمر -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالسلام على المرسلين إشارةً إلى سلامة طريقتهم، وأن عدم إيمان أقوامهم لا يقدح في جهودهم أو طريقتهم.

ثم أدمج في هذا الحمد والسلام أدمع الدعوة إلى نظرٍ آخر وحجةٍ ظاهرة من حجج الله على المشركين: وهي النظر في آياته الآفقية والنفسية وما فيها من دلائل التوحيد والبعث.

وحتى نستبين معالم المنهج القُرْآني في عرضه لهذه الآيات هذه الآيات الآفقية والنفسية نبدأ بالتعرف على تفسير هذه الآيات، هو طريقٌ لأن نستخرج منها أو نستبين منها معالم منهج القُرْآن في عرضه للآيات الآفقية والنفسية.

أما الآية الأولى فتفسيرها وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]؛ أي قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين.

وسلم أَيْضًا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم -جَلَّ وَعَلَا- على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله من العالمين، وذلك برفع ذكرهم وتنويهًا بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قَالُوه أَيْضًا في ربهم ﷻ سلامته من النقائص والعيوب.

فأكرم الخلق على الله وأخصهم بـ الزلفى لديه هم رسله، وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم في العالمين: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨١]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]؛ وقال ﷻ: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩- ١١٠]، وأَيْضًا قال ﷻ: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ من مقرون القول، لأنه قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وذهب بعض العلماء إلى أن السلام من الله تعالى وليس من مقرون القول، والوقف تام عند قوله: لله، أي: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم بعدها استأنف فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ لاشك أنه يكون متعلقًا بـ قل التي جاءت في أول الآية.

قال ابن القيم: وفصل الخطاب في ذلك، أي: هل هو من مقرون القول أو أنه من الله تعالى، يقول: "وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنتظمها انتظاما واحدا؛ فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه وليس فيه إلا البلاغ والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذي اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ومن العباد اقتداء وطاعة فنحن نقول كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ".اهـ.

أما قوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] هذا استفهام، استفهام قد تقرر وعُرف، أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أما الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

وهذا الاستفهام مبني على ما تقدم من قصص الأنبياء مع أقوامهم، حيث ظهرت فيها في هذه القصص منته العظيمة على عباده المؤمنين، وتجلت آيات قدرته في نجاتهم ونصرتهم وقمع المشركين وإهلاكهم، فلم تنفعهم آلهتهم ولم تدفع عنهم.

ثم إن هذا الاستفهام كما أنه كالنتيجة لما قبله، وبالنظر إلى اعتبار الآيات التاريخية فهو كالتمهيد لما بعده، وهو نوع آخر من الحجج وهو النظر والاعتبار للآيات الكونية والنفسية.

قال ابن جرير الطبري: "وَقَوْلُهُ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ؛ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ مِنْ قَوْمِكَ فَهُمْ يَعْمَهُونَ: اللَّهُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ هَذِهِ النِّعَمَ الَّتِي قَصَّهَا عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ بِالَّذِي أَهْلَكَهُمْ بِهِ مِنْ صُنُوفِ الْعَذَابِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَكُمْ فِيهَا، خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ أَوْثَانِكُمُ الَّتِي لَا تَنْفَعُكُمْ وَلَا تَضُرُّكُمْ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا وَلَا عَنْ أَوْلِيَائِهَا سُوءًا، وَلَا تَجْلِبُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِمْ نَفْعًا؟ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَشْكُلُ عَلَى مَنْ لَهُ عَقْلٌ، فَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ أَنْ تُشْرِكُوا عِبَادَةَ مَنْ لَا نَفْعَ عِنْدَهُ لَكُمْ، وَلَا دَفْعَ ضَرٍّ عَنْكُمْ فِي عِبَادَةِ مَنْ بِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضُّرُّ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ. ثُمَّ ابْتَدَأَ تَعَالَى ذِكْرُهُ تَعْدِيدَ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ، وَتَعْرِيفَهُمْ بَقْلَةِ شُكْرِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى مَا أُولَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ "اهـ ابن جرير الطبري.

هذا ما يمكن أن يقال حول الآية الأولى.

أما الآية الثانية وهي قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

هذه الآية الكريمة بدأ الله هذه الآية ببيان ما أجمل في الآية السابقة، بقوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهذه الآية هي بداية البيان لما أُجمل في الآية السابقة وهي قوله ﷻ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ثم بدأ يبين دلائل استحقاق العبودية وحده ﷻ دون غيره من الشركاء.

والمعنى: أمن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم وما دونها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك، وأنزل لأجلكم من السماء ماءً فأنبتنا بها حدائق أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط.

قال الفراء: "وإنما يقال الحديقة لكل بستان عليه حائط، فما لم يكن عليه حائط لم يُقَل له حديقة".

وقوله: ذات بهجة أي منظر حسن، بهجة الحسن يبتهج به من يراه، وذلك من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها.

وقوله: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أي: ما صح وما أمكن لكم إنبات شجرها فضلًا عن ثمرها وسائر صفاتها التي عليه، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دونما سواه من الأصنام والأنداد.

وقوله: أأله مع الله، استفهام على طريق الإنكار، أي: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه، بل ليس معه إله، ولذلك؛ قال بعدها: بل هم قوم يعدلون، أي: يعدلون به غيره ويسوون به سواه، مع أنه هو وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق، هذه الآية هذا تفسير الآية الثانية.

وأما تفسير الآية الثالثة وعلاقتها بما قبلها لما ذكر تعالى أنه منشئ السماوات والأرض ذكر شيئًا مشتركًا بين السماء والأرض وهو إنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق في الأرض، ذكر شيئًا مختصًا بالأرض فقال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

أي: هل الأوثان والأصنام الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، أم الله الذي جعل الأرض قرارًا يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى ومن البناء والحرث والذهاب والإياب، وجعل خلالها أنهارا التي هي الأنهار العذبة الطيبة يشقها في خلالها وصرفها فيها، وبين أنهار كبار وصغار وغير ذلك وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب صالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم وفي زروعهم وأشجارهم وشربهم وشرب مواشيهم.

وجعل لها رواسي أي جبالًا ترسيها وتثبتها لألا تميل وتكون أوتادًا لها لألا تضطرب، وجعل بين البحرين حاجزًا أي جعل بين المياه العذبة والمالحة مانعًا يمنعها من الاختلاط، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على الصورة المفصولة منه.

وقوله: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره لم يُعبَد، إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا دونه فلمَ يعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أنهم يشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئًا. هذا ما يمكن أن يقال حول الآية الثالثة.

وأما الآية الرابعة وأيضًا علاقتها بما قبله أنه لما ذكرهم ذكرهم تعالى بنعمه ودلائل قدرته في آياته الآفاقية، ثم بما منَّ عليهم في أنفسهم فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فبدأ بأشد الأحوال وأخصها فقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: هل يجيب المضطر والمكروب والمكلوب الذي تغشته الشدائد، وطلب الخلاص مما هو فيه إلا الله وحده.

ثم انتقل إلى علوم الضر والشدة فقال: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي من يكشف السوء وهو البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده، ثم استطرد للتنبيه على ما هو أعظم منة من كشف السوء وهو التمكين لهم في الأرض فقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: ومن يجعلكم خلفاء الأرض فيمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه.

قال أبو حيان: "وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكًا متسلطًا" اهـ.

وقال صحاب المفتاح: "كانوا إذا حزب الأمر دعوا الله تعالى دون أصنامهم" فالمعنى إذا حزبكم أمرٌ أو قارعة من قوارع الدهر إلى أن تصيروا وهذه من سنن الحياة، من يجيبكم إلى كشفها ويجعلكم بعد ذلك تتصرفون في البلاد كالخلفاء.

وقوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي يفعل هذه الأفعال، هو استفهام على جهة التوبيخ، والمراد لا أحد يفعل مع الله الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام شيئًا من ذلك، حتى بإقرار المشركين أنفسهم؛ ولهذا كان إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين؛ لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما قل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم؛ لأن الغفلة والإعراض قد استولت عليهم.

وأما الآية الخامسة فمناسبتها لما تقع قبلها أنه ذكرهم بنعمته تعالى، ثم ذكرهم تعالى بمنته عليهم في أحوال خاصة في أحوالهم، وهي هدايتهم في أسفارهم في البر والبحر بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال ﷻ: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وبالرياح التي يهتدون باتجاهها فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، والعطف بالامتنان بإرسال الرياح في قوله: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

يشير إلى أنها من أدلة السير، لكن نبه إلى ما هو أعظم منها، وهو التصريح بأن هذه الرياح من أدلة الغيث والمطر، فقوله: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ أي للزرع والأرض.

وقوله: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير لتوحيد الله في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته، ونفيه ما يضاد ذلك من الشرك، هذا ما تيسر في هذه المحاضرة في هذه الحلقة في موضوع معالم منهج القرآن في تناوله لآيات من سورة النمل كدراسة تطبيقية.

أستودعكم الله، وألقاكم - إِنْ شَاءَ اللهُ- في المحاضرة القادمة الأخيرة، لنستكمل معكم بقية الآيات ودلائل هذه الآيات على منهج القرآن في تناول الآيات الآفاقية والنفسية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين؛ نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فما زال الحديث موصولًا في موضوع معالم منهج القرآن في تناوله للآيات الآفاقية النفسية، دراسة تطبيقية على آيات من سورة النمل، وهي الآيات التي تبدأ بقوله ﷻ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] إلى قوله ﷻ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

وانتهى الحديث إلى تفسير الآيات، وانتهينا من تفسير الآيات الخمس الأولى، ووقفنا عند الآية السادسة، تفسير الآية السادسة، وهذه الآية صلتها بما قبلها أنه ﷻ لما قضى تعالى في الآيات السابقة الأصل الأكبر من أصول الدين وهو الإيمان بالله تعالى ببيان دلائل إلوهيته، وأكد ذلك بخاتمة الآية السابقة.

ونزه نفسه فيها من كل شيء، ثم في هذه الآية بتقرير الأصل الثاني بعد الإيمان بالله تعالى في القرآن وهو الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

فقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: هو الذي بقدرته وسلطانه ﷻ يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣] وقال تعالى أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

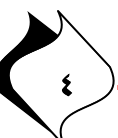
ثم في آنٍ واحد امتن ﷻ واستدل على البعث، امتن على العباد ثم استدل على البعث بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فهذه الجملة فيها منة وفيها دليل على البعث، أي من ينزل المطر من السماء، وبما ينبت من بركات الأرض، وفي هذه الجملة امتن الله ﷻ على العباد بالرزق من السماء والأرض.

ثم هي تشير إلى دليل حسي يشاهد مقرور على القدرة على البعث، وهو هذا النبات الذي يتجدد ظهوره على سطح الأرض كلما تجدد نزول المطر عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدل على أن معه تعالى إلهًا لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذُكر من أفعاله تعالى، إنهم ما ادعوها صريحة، لا يدعون أن هذه الآلهة تقدر على ما أحدثه ﷻ مما اختص ﷻ بقدرته، لكنهم الله ﷻ تحداهم بأن يأتوا ببرهان عقلي يدل على أن الله تعالى له شريك أو إله، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

أما السابعة وعلاقتها بما قبلها، هو أن الآية السابقة على حتمية البعث؛ لأنه كامل في قدرته ورحمته، بين في هذه الآية أنه تعالى هو وحده الذي يعلم متى البعث، يعلم متى الساعة؛ لأنه كاملٌ أيضًا في علمه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيرها: "يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ



اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] ، والآيات في هذا كثيرة". الدالة على اختصاص الله ﷻ بالغيب وأنه لا يعلمها إلا هو.

"وقوله تعالى: ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٨٧] أَيْ ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ". اهـ ابن كثير.

أما تفسير الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

يقول السعدي في تفسيره: "فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور أي: فلذلك لم يستعدوا."

"﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: بل ضعف، وقل ولم يكن يقينا، ولا علما واصلا إلى القلب وهذا أقل وأدنى درجة للعلم ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم قوي ولا ضعيف وإنما ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك، ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ أي: من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال بعدها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة." اهـ السعدي حول الآية الأخيرة.

وقال الطاهر ابن عاشور وربطها بما قبلها فقال: "فَحَاصِلُ الْمَعْنَى عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ وَقَدْ تَلَقَّى بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَا يَعْلَمُونَ فِي شَأْنِ الْآخِرَةِ وَهُوَ مَا اشْتُهِرَ عَنْهُمْ مِنْ إِنْكَارِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، أَوْ قَدِ اضْطَرَبَ مَا يَعْلَمُونَهُ فِي شَأْنِ الْآخِرَةِ وَأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فِي يَوْمِ الدَّارِ الْآخِرَةِ".

هذا ما تيسر حول تفسير الآيات وبيانها، ويكون هذا طريقًا لنا لنتوقف أو لنقف على الدلالات التي يمكن أن توصف بالآيات على معاني منهج إقرار في عرض الآيات الآفاقية والنفسية.

الدلالة الأولى: أن القرآن يعرض الآيات الآفاقية باعتبار أنه سخرها للإنسان ولصيقة به، فهي جزء من حياته وبيئته، ومحققة لوظيفته في الأرض، وهذا المعنى هو خاصية سبق أن تناولناها عمومًا في محاضرة مضت، لكنها ظهرت أيضًا في هذه الآيات، فهي ظاهرة فيها قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠].

فإنزال الماء في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو لأجل الإنسان وهو مسخر له ومضطر إليه، وهو منَّ الله به على العباد بالنبات والحدائق المبهجة للقلوب في قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فهذا يدل على أنها قريبة من الإنسان ومحبوبة له، ذات بهجة أي: لاشك أنها مما يحبها الإنسان ويتعلق بها ويكون قريب منها.

وتكرر هذا المعنى مجملًا في الآية الخامسة في قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

الشاهد: هو قوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذه دلالة ظاهرة أيضًا في الآية الثالثة قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

فهذه مهيئة لهذا الإنسان، والأنهار مسخرة له وقريبة منه وهي جزء من حياته، وكذلك الجبال التي ثبت الله بها الأرض، فهي قريبة منه، وهو يأنس بها ويستدل بها وغير ذلك مما يُنتفَع به من هذه الآيات.

وكذلك هذه الآية ظاهرة في الآية الرابعة قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] أي جعل لهم من العلامات ما يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وكذلك الرياح هي علامة على السير وعلى الغيث والرحمة، فهي قريبة من الإنسان، وأنيسة له.

والدلالة الثانية التي يمكن أن تؤخذ من الآيات آيات سورة النمل المقطع الذي تناولناه بالقراءة والتفسير: هي أن القرآن يتناول الآيات الآفاقية والنفسية بعبارة جلية وأسلوب سهل قريب، وهذا ظاهر في جميع الآيات السابقة التي تناولتها هذه القضية النفسية، فالمتأمل في الآيات كلها يلحظ فيها روح العبارة وحسن سبكها، وبعدها عن الغلاظة والتكلف، ولو أردنا أن نستعيضها لوجدنا أنها ظاهرة في وضوحها وجلائها.

كما قال ﷻ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦١] إلى آخر الآيات، فهي واضحة جلية، وأساليب أيضًا في غاية الوضوح والبيان.

الدلالة الثالثة في القرآن: جعله الآيات الآفاقية والنفسية مقرونة بالغرض الذي صيغت له، في خمس آيات متوالية يعرض تعالى الآيات الكونية والنفسية فيما يكون معقب في كل آية على سبيل الإنكار: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ هذا المراد، هذا ما ورد يقول في آية ﷻ في كل آية يعقب عليها يقول: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾.

إذًا هو يعرض الآية، ثم يذكر الغرض منها وهي الاستدلال بها على استحقاق الله ﷻ وحده بالإلوهية، وأن الذين يشركون قد وقعوا في ظلم عظيم.

وفي الآية الخامسة منها يقول الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] يعرض الآية الآفاقية في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مقرونة بغرضين:

الأول منها: هو إثبات البعث في قوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

والغرض الثاني منها: هو إثبات التوحيد ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾، مع الآيات الآفاقية قارب معها غرضين هما إثبات البعث، وإثبات التوحيد أو توحيد الإلوهية لله ﷻ.

الدلالة الرابعة التي يمكن تؤخذ من الآيات: أنه ﷻ يقرن بين الآيات الآفاقية والنفسية لحكمة بالغة وهذا ظاهر .. يقول ﷻ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] فهذه جاءت في أثناء الآيات الآفاقية، آية تتعلق بالإنسان في حال الاضطرار وقرب الله ﷻ منه وأنه يكشف السوء، وأنه أيضًا هو الذي يمكن له في الأرض ويجعل بني آدم خلفاء الأرض.

وهذا أيضًا في الآية الخامسة الدلالة الرابعة في الآية الخامسة قوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

فقد دلت الآيات هذه على عظيم رعاية الله تعالى لنفس الإنسان ورحمته ولطفه بهذا الإنسان، فقد هيأ الله له أسباب الخلافة في الأرض، وسخر له فيها الآيات، ثم إنه تعالى سخر بعض آياته الكونية وهي العلامات والرياح لإزالة ما قد يقع من ضرر على الإنسان من الآيات الآفاقية الأخرى وهي ظلمات البر والبحر، فقد يقع بالإنسان من بعض الآيات

ضرر وشدة وكربة فالله ﷻ يهيئ بآيات أخرى من آفاقه الكونية لإزالة ما قد يقع بالإنسان من ضرر.

فإنه تعالى سخر بعض آياته الكونية والعلامات والرياح لإزالة ما قد يقع من ضرر على الإنسان من الآيات الآفاقية الأخرى وهي ظلمات البر والبحر.

وكذلك في قوله تعالى في الآية السادسة: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

في هذه الآية دمج بين خلق الإنسان وخلق النبات لحكمة بالغة وهي الاستدلال به على حتمية البعث، فدمج في الآية بين خلق الإنسان في قوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وبين خلق النبات في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وتقدم في التفسير أن المراد يرزقكم من السماء حين ينزل لكم المطر وبما ينبت في الأرض من أثر من آثار هذا المطر.

فإذًا هو دمج بين هذين الأمرين خلق الإنسان وخلق النبات لحكمةٍ بالغة، هي الاستدلال به على حتمية البعث.

الدلالة الخامسة التي يمكن أن نأخذها من الآيات: أنه يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة، يستدل .. كما سبق وتقدم عندها في خصائص المنهج القرآني في محاضرة مضت، ولكن هذا ظاهر في هذه الآيات، فهو ظاهر في جميع الآيات، فقد تناولت آيات آفاقية عظيمة ظاهرة وتدل على كمال قدرة الله تعالى وسعة علمه وحكمته ﷻ وأنه مستحق للعبادة.

كما أنه دمج في الآية السادسة بين خلق الإنسان وخلق النبات وهو مشاهد ويستدل به على أمر غيبي وهو البعث، إذًا هذه الآيات كلها ظهرت فيها أنه يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بأنه كلما ذكر لهم آية من هذه الآيات الآفاقية النفسية العظيمة الظاهرة، يذكر بعد ذلك الحجة عليهم بأنه هو الإله الحق ﷻ وأنه المستحق للعبادة، وإن كان غير مشاهد، لكن ظاهر في ذلك آثاره في خلقه ﷻ.

وكذلك وضح ذلك في الآية السادسة دمج بين خلق الإنسان وخلق النبات وهو مشاهد ويستدل به على أمر غيبي وهو البعث.

الدلالة السادسة: أنه تناول الآيات الآفاقية على اختلافها بنهاية واحدة، تأمل في الآيتين الثانية والثالثة: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النمل: ٦٠، ٦١].

تأمل كيف صارت الآية الثانية أساسًا لبقية الآيات بعدها، وهي التي وضحت الغرض من خلق السماوات والأرض، وصت الآية هنا بالنظر إلى السماء وكيفية رفعها عن الأرض، والأرض وكيفية تسخيرها للإنسان كالنبات والجبال والرياح وغيرها من المسخرات الأرضية.

الدلالة السابعة: هي أنه تعالى يعرض الآيات الآفاقية والنفسية ممتنًا بها على عباده، ومستدلًا بها في نفس الوقت على كماله في قدرته وعلمه وسائر صفاته، وهذا ظاهر في جميع الآيات.

في الآية الأولى: دمج بين بيان كمال قدرته وعلمه وسائر صفاته وبين منته فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وفي الآية الثانية دمج بين كمال قدرته وعلمه ومنته فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وكذلك في الآية الثالثة دمج بين كمال قدرته ومنته فقال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وأيضًا في الآية الرابعة والخامسة دمج بين كمال قدرته ورحمته ومنته فقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٢، ٦٣].

كذلك في الآية السادسة دمج بين كمال قدرته ومنته فقال: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

الدلالة الثامنة والأخيرة: أنه يعرض الآيات الآفاقية والنفسية محتجًا بها على وحدانيته ضمن بقية الحجج القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] رابطًا بين الاحتجاج بالآيات التاريخية والآيات الآفاقية والنفسية في غاية البراعة والإبداع.

والمقصود أنه لا يعرض الآيات الآفاقية والنفسية فقط مقصورًا عليها، بل هو يعرضها ضمن مجموعة من الحجج والبراهين المتعددة والمتنوعة.

هذا ما تيسر في هذا المقرر وفي هذه المحاضرات والحلقات، أسأل الله ﷻ أن ينفعكم بها وينفع بها السامعين، وأن يوفقنا إلى طاعته ومرضاته، وأن يجعلنا من المستمعين القول فيتبعون أحسنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾